هلال شومان

ليمبو بيروت

رواية

آفاق AFAC

ليمبو بيروت

هلال شومان

ليمبو بيروت

رواية

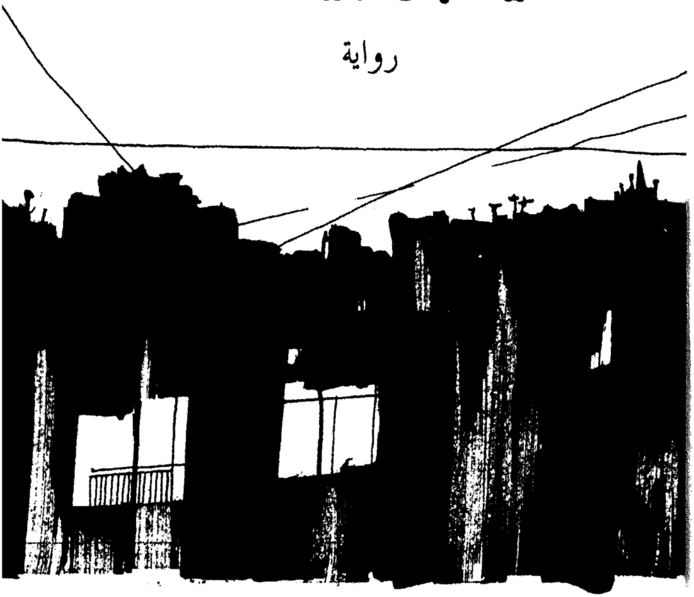

الكتاب: ليمبو بيروت / رواية
المؤلف: هلال شومان
عدد الصفحات: 232 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9953-582-46-7
الطبعة الأولى: 2013
جميع الحقوق محفوظة

تصميم الغلاف: جورج عزمي
الاستشارة الفنية: جنى طرابلسي
تنفيذ الإخراج الفني الداخلي: جنى طرابلسي وسارة السخن

AFAC آفاق | The Arab Fund For Arts and Culture
الصندوق العربي للثقافة والفنون - آفاق

الناشر:
التنوير للطباعة و النشر و التوزيع
لبنان: بيروت – الجناح – مقابل سلطان إبراهيم – سينتر حيدر التجاري – الطابق الثاني
هاتف و فاكس: 009611843340
مصر: القاهرة – 44 شارع الفلكي – الدور الرابع – شقة 10 – وسط البلد
هاتف: 0020223924139 - 00201003418118
تونس:هاتف:0021274407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إهداء

إلى من صادقت ابتساماتي ابتساماتهم، من دون أن أتورّط بمعرفتهم أكثر. إلى الوجوه التي أصادفها تكراراً في شوارع بيروت، فأحفظها من دون أن أعرف أصحابها حقّاً. إلى الذين يحملون قصصاً ولا يخبرونها لأحد.

رسم الفصل التالي: فادي عادلة

الأمير الصغير

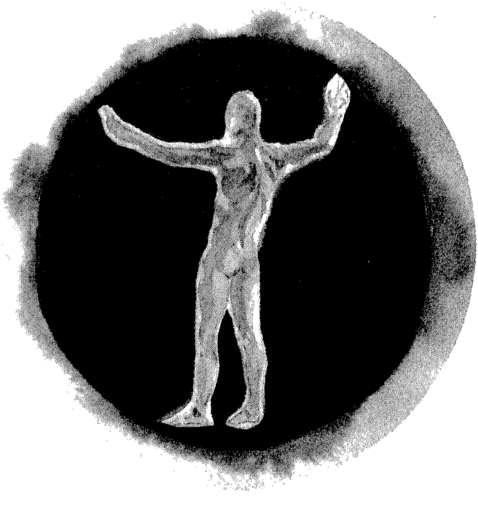

لم يعرف أن ينام. بقي طويلًا في السرير، ينظر إلى خزانة الحائط. حدّق في بابها المشقوق. خلّفت الفتحة ممرًّا ضيّقًا حدّده الظلّ على الأرضيّة الخشبيّة بتحالف مع نور الممرّ. هل هو الفراش الذي لم يعتدْه بعد؟ أم حرارة شهر أيّار؟ لم يقدر أن يحدّد سببًا مباشرًا لأرقه. حاذر أن يتحرّك، واضطجع كجنين في بطن أمّه. عانق نفسه. أغلق نفسَه على نفسِه. الركبتان مضمومتان تلمسان الصدر، ومثنيّتان حتى تكاد قدماه تلمسان مؤخّرته. يداه تجمعان رجليه أكثر، وتطويان ركبتيه أكثر.

عندما تأتيه هذه الحالة، يغادره النوم، ويشعر بالفراغ. في مرّة، حاول عدّ الخراف لينام أسرع. ألفرد نصحه بذلك. قال له: «اتطلّع بالسقف وبلّش عدّ، وبشارطك إنّك حتنام بعد الخروف الـ ٢٥».

عدّ وليد. تخطّى الخروف الـ ٢٥. عدّ خرافًا كثيرة، لكنّه لم ينم. كان يعدّ بعينيه، ثم تعب من النظر إلى السقف الخالي، وأُنهك أكثر عندما حاول أن يملأ خلوّ السقف بخياله.

فجأة، تضخّم كلّ شيء. كبر رأسه، وتعاظمت أفكاره حتى

استحالت فوضى. بات المرسوم على السقف نزقًا (نزق أمّه قبل موت أبيه)، كريهًا (كرهه للسبانخ والأرزّ)، غبيًّا (كذلك السياسي ابن منطقته) سوقيًّا (السوقي الممجوج لا ذلك الذي يستمدّ منه أفكارًا فنيّة).

قرّر أن يمحوَ كلّ شيء، ويُعيد للسقف فراغ رأسه، هذا الفراغ الذي بات يفتقده هو الآن.

لقد حلّت الذكريات.

xxx

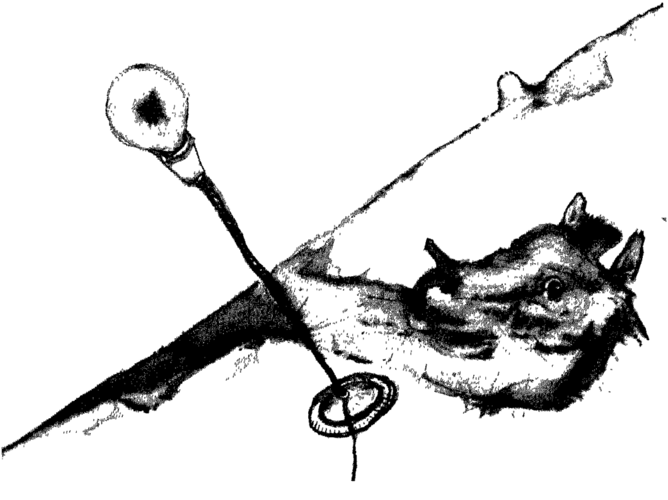

التفت وليد في سريره، فوجد ألفرد نائمًا في الجانب الآخر. كان فاغر الفم، متعبًا، يضمّ طرف مخدّته في يديه كولد يخشى ضياع لعبته المفضّلة. لحظ وليد أنّ ألفرد اكتسب وزنًا مقارنةً بلقائهما الأوّل. رأى جرحَ خاصرته في الجهة الأقرب إلى ظهره، ووشم مفصل قدمه، ومشروع كرشه المقبل. بان له في نومه أربعينيًا، يعود من عمله كلّ مساء مرهقًا، يداعب طفله وهو شبه نائم، ثم ينضمّ لزوجته في السرير. هجمت الصورة على وليد، ثم تضخّمت. هل من الممكن أن يؤسّس ألفرد عائلة؟ هل من الممكن أن يؤسّس هو عائلة؟

بدت الفكرة ضربًا من المستحيل.

عندما طلب منه ألفرد أن ينتقل للعيش معه في منزله، عارض. قال إنّه لا يقيم علاقات. فلنبقَ كما نحن. نلتقي، ننسى هموم نهارنا، ننبسط وننام. إذا عشنا معًا، نختنق بعضنا. نأتي بهموم الخارج إلى الغرف. «خلّينا هيك»، قال. غرباء. نخجل كلّما التقينا. وتأخذنا دقائق نمضيها في أسئلة سخيفة عن الفترة التي لم نلتقِ بها. «خلّينا هيك»، قال. آتي أنا من كاراكاس إلى كليمنصو عندك كلّما أردنا أن نلتقي.

لم يناقشه ألفرد. سكت. قال له: «متل ما بدّك». كان وليد أكيدًا أنّ ألفرد سيعاود طلبه قريبًا، وفكّر في المدّة التي ستصمد فيها لأؤه. لم يتخيّل أبدًا أن يتمّ الأمر بهذه السرعة: كان في زيارة له، وعلق.

لا يعرف إن كان بمقدوره أن يصف مجيئه إلى كليمنصو بالـ«زيارة». لا يعرف إن كان فعلًا «علق». الثانية كانت كلمة ألفرد.

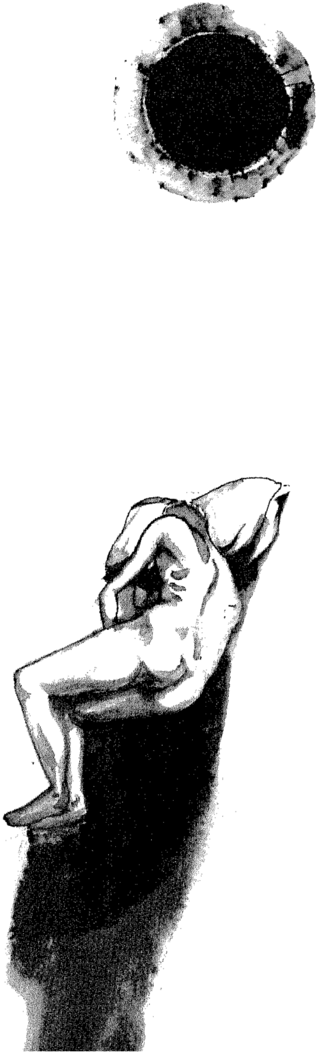

قالها له، ثم التصقت في رأسه بشكل غريب.

لحظة اندلعت الاشتباكات، كان مع ألفرد في الشرفة. لا يذكر الساعة. ربّما الخامسة مساءً، أو قبل ذلك، أو بعدها بقليل. أقيمت مؤتمرات صحفيّة، ركضت أخبار عاجلة كثيرة أسفل الشاشات (من دون أن يقرآها)، خيِّل لهما الكثير من الأصابع المرفوعة (من دون أن يشوفاها)، وتوقّعا أكثر من حاجبين متغضّنين، وأكثر من قطرة عرق على جبهة، وتناهى إلى سمعهما الكثير.. الكثير.. من الصراخ.

في الشرفة، فكّر وليد كم أنّ الصراخ غير مستحبّ في ليلة هانئة كهذه.

أضاءت الشقق في البنايات المجاورة، واحدة تلو الأخرى. فجأة، لم يعد هناك تقنين. فجأة، أكرمت كهرباء لبنان على الجميع.

في الشرفة، أومأ وليد وألفرد برأسيْهما لرجالٍ خمسينيّين تركوا تلفازاتهم مضاءةً في الغرف وخرجوا. كانوا جميعًا يدخّنون. فوق كلّ منهم سحابة تحرسه. بقيت ربّات البيوت في الداخل. على الأرجح كنّ يتابعن الأخبار، فكّر وليد.

لم يمضِ وقت كثير قبل أن تقطّع طلقات حمراء السماء. بدأت تسمَع زخّات رصاص خفيفة، وشت أصواتها العميقة أنّها لجهة داخل بيروت لا الساحل. ذكّر المشهد وليد بلقطة من فيلم «إي تي»، فيلمه الأحبّ إلى قلبه. في وسط الكادر يومئ «إي تي» بتعبير وجهي لا يفقهه الممثّلون الآخرون ثم يظهر في لقطة تابعة في مكان أكثر براحًا

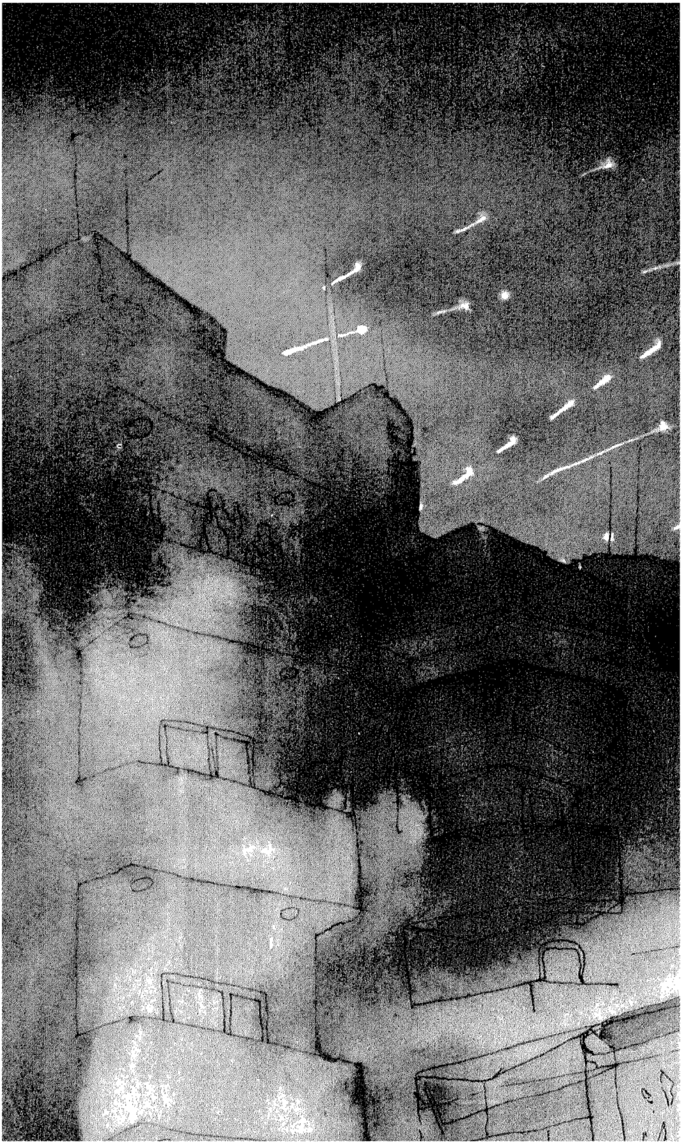

موجّهًا إصبعه إلى فوق قائلًا: «Home».

هل رأى هؤلاء الخمسينيّون الموجّهون أصابعهم إلى زخّات الرصاص كلّ شيء مسبقًا؟ هل كانوا يستعيدون عادات قديمة؟ هل تذكّروا كيف كانوا يخرجون في مراهقاتهم إلى الأسطح وينتظرون قصف المساء؟

فيما تابع الرجال تدخينهم وتحدّث بعضهم مع بعض من شرفة إلى شرفة ومن سطح إلى سطح، خيّل لوليد أنّهم جميعًا سعداء سعادة فائقة.

ماذا الآن؟

لقد حلّت الذكريات.

١٨

***

جلس وليد في السرير، أنزل رجله اليسرى إلى الأرض، وأخذ يتفحّص الغرفة. بدت الأرضيّة الخشبيّة له «بورجوازيّة»، هو الذي يأتي من عائلة متوسّطة لا تعترف إلاّ بالبلاط المنقّش، وفي أقصى الأحوال ببلاط الرخام الرخيص في الصالون وغرفة القعود فقط. يتذكّر عندما شاهد الأرضيّات الخشبيّة في شقّة صديقه. يومها، اقترح على أبيه، الذي كان يخطّط لطلاء الجدران والقيام بورشة تجديد كاملة في الشقّة،

أن يركّبا الخشب في غرف النوم على الأقل. تدخّلت أمّه معترضة:

- لشو؟ ليحشّي وسخ وقرف تحته؟

كانت حجّتها جاهزة، ودعّمتها بالحديث عن عائلة من الفئران وجدها جيرانهم تحت الأرضيّة الخشبيّة التي ركّبوها في شقّتهم، وندموا عليها لاحقًا طبعًا، كما قالت.

عرف عندها أنّه خسر معركته السخيفة. نظْرة إلى وجه أبيه قالت له إنّ أمّه هي من يقرّر في هذه الأمور. دعّم أبوه نظرته بابتسامة، ثم ضحكا. في لحظة، باتا متحالفين في مواجهة حجج الأمّ التي سارعت إلى هجوم استباقي جديد:

- اضحكوا. بس مش ح يغيّر ضحكن شي!

في غرفة ألفرد، كانت الأرضيّة الخشبيّة نسخة طبق الأصل من تلك التي رآها في شقّة صديقه. رغم السنين التي مرّت، تحتفظ ذاكرته بلون الخشب. يعرف أنّه لو قام وفتح لابتوب ألفرد، لاستطاع إيجاد اللون على «آدوب ديزاين» بسهولة فائقة رغم الخيارات الكثيرة الموجودة لتدرّجات اللون.

لابتوب ألفرد موضوع على مكتب يمتدّ من زاوية الغرفة اليمنى إلى عمود دعم في الجهة اليسرى. المكتب طاولة خشبيّة طويلة عريضة عارية من التصاميم. وراءها الواجهة الزجاجيّة التي ترافقها في طولها، لا تسمح بإنشاء الرفوف. على طرفيها تتجمّع قصاصات وكتب، وأقلام، وكاميرا وعدسات، والكثير من المبعثرات. رغم هذه التلال

على الأطراف، وسط المكتب عارٍ كلّيًا إلاّ من اللابتوب والشريط الذي يصله بالكهرباء.

أنزل وليد رجله الثانية عن السرير ثم وقف بحذر. لمست قدماه العاريتان الخشب. مرّ قرب حذاءه وثيابه الملقية على كرسي وضِع بجانب الخزانة المشقوقة. حاول أن يربط الرباط الأمامي للشورت الواسع الذي أعطاه إيّاه ألفرد كي لا يسقط، ثم أخذ يتجوّل في الغرفة ببطء شديد محاذرًا الدوس على أكوام ثياب وأكياس توزّعت في الطريق. كان وسط المكتب الفارغ غريبًا مقارنة بالأوراق المتجمّعة على الأطراف أو فوضى الأرض، أو حتى مصارين خزانة الحائط المندلقة.

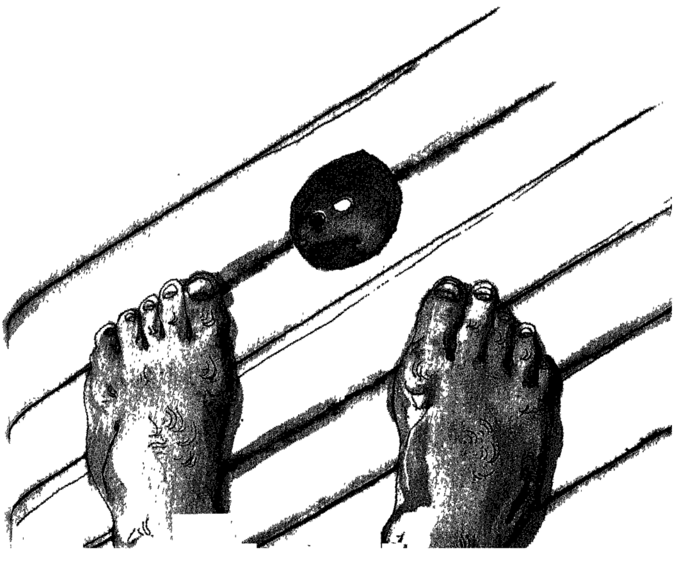

في أوّل مرّة طلب ألفرد منه الإقامة معه، ردّ وليد عليه:
– إنت مْكَرْكَب.
نظر إليه ألفرد مستغربًا، فأضاف:
– عم بحكي جد. إنت مكركب كتير. وأنا مريض بالتنظيم. ما بيمشي الحال.
ألفرد لم يقدر إلاّ أن يضحك عندها وقال: «طيّب، طيّب». يومها ضحك وليد معه، لكنّه لم يرتح للطريقة التي استقبل بها ألفرد إجابته. ضحك لأنّه يريد إنهاء الحديث عن النقلة فقط.
قبل أن يصل للجانب الآخر من السرير، حيث ينام ألفرد، رأى الصوَر الملصقة على الحائط، فمشى ببطء ناحيتها. أخذ يتلمّس الكتب القليلة على الرفّ وهو ينظر إلى الملصقات. لم ينتبه لصورتين له بالأبيض والأسود ألصقهما ألفرد قبل يومين. كان يحدّق في ملصقه المفضّل.
في الملصق تظهر كلّ من نادية لطفي وهند رستم وشادية. سرق ألفرد وضعيّات لكلّ من الممثّلات الثلاث من أشهر أفلامهنّ، وجعلهنّ يبدون في مكان واحد. ظهرت الممثّلات وكأنّهنّ يتواصلْن بطريقة ما، رغم أنّ كلّ واحدة منهنّ كانت تقوم بشيء. لمّا أعلن وليد أنّ شادية دخيلة على نادية وهند، أجابه ألفرد: «ما خصّك»، وضحك.
استمرّت أصابع وليد تداعب الكتب القليلة، بحركة لم يكن مركّزًا فيها. مالت الكتب قليلًا دون أن تقع. كان مأخوذًا بالملصق. فجأة، اتّضح له أنّ شادية ليست دخيلة على الإطلاق. اكتشف تفصيلًا

لم يستطع أن يحدّده. بدت الممثّلات الثلاث له أخوات متناحرات خارجات من قصّة في كتاب «ألف ليلة وليلة»، وفي الوقت نفسه منسجمات إلى حدّ كبير، ما جعله يتساءل في تلك اللحظة إن كنّ مثَّلْنَ معًا في فيلم واحد، رغم أنّه لا يشاهد الأفلام العربيّة على الإطلاق.

التفت وليد ناظرًا إلى ألفرد. لم يكن يرى ذلك الجانب منه من موقعه السابق في السرير. مجدّدًا، لم ير إلاّ وجهه، النصف العلوي منه تحديدًا، جبهته حتى أرنبة أنفه. غاب النصف السفلي من وجهه تحت طرف المخدّة الذي يضمّه.

في رسومه، يركّز وليد على ذلك الجزء من الوجه تحديدًا. يوليه عناية خاصّة ويمضي ساعات من العمل في تنقيحه. مرّةً، رسم وجهًا بادئًا بالجزء العلوي منه، وقبل أن يكمله انتقل ليرسم النصف العلوي من وجه آخر. بعد ساعتين، عاد إلى الوراء وحدّق في ما رسمه. وجد عشرات من أنصاف الوجوه. كلّها كانت بلا ذقون وثغور.

رأى ألفرد أنصاف الوجوه، وعلّق متهكّمًا كمراهق لم ينسَ ملاحظة أزعجته:

– أنا مكركب، وإنت مريض بالتنظيم؟

لم ينتبه ألفرد لوليد وهو يواصل الرسم. كانت الوجوه تحدّث وليد بلا ثغور، وهو كان يعرف من الأنصاف العلويّة طبيعة الأنصاف السفليّة التي عليه رسمها. دلّته الأولى على الثانية. لم يحدث أيّ انقطاع لديه عند إكماله الرسم في اليوم التالي. كان كلّ شيء منظّمًا

أُفيش

أُفيش

أُفيش

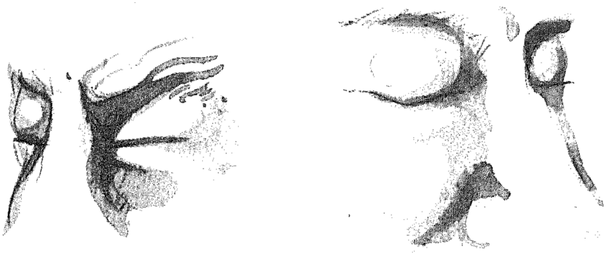

في رأسه، وانتهى الرسم كأنّه رُسمَ في جلسة واحدة.

عندما رأى ألفرد الرسمَ مجدّدًا، ابتسم. لم يقل شيئًا، لكن صمته هذا لم يخفِ إعجابه. في زيارة لاحقة، وجده وليد واقفًا يصور الرسم. استأذن منه بإيماءة من رأسه، وبدوره أومأ وليد مرحّبًا. تابع التقاط الصوَر لثوان، ثم أراه إيّاها. محاها كلّها مبقيًا على واحدة، ولم يتوقّف عن الابتسام وهو ينظر إلى الصور على الشاشة.

هي الابتسامة نفسها على النصف العلوي من وجه ألفرد النائم الآن، يحدّدها وليد بعدد ثنيات الجبين.

لكأنّه يحلم بتركيز.

تحرّك ألفرد في السرير. وقعت المخدّة التي يحتضنها على الأرض. بان صدره العاري، ومعه ذلك الوشم الياباني. لمّا خلع ألفرد القميص لأوّل مرّة في حضور وليد، فوجئ وليد بالوشم. كانت من المرّات القليلة التي يرى فيها وشمًا مرسومًا في هذا المطرح بالذات، فوق الحلمة اليسرى. فوق القلب. سأله عن اللغة التي كتِب بها الوشم، فأجابه ألفرد: «ياباني». سأله عن معناه، فقال له: «بعدين».

ثمّ «بعدين» ، أعاد وليد سؤاله ، ليجيبه ألفرد:

– إنت شو بتقول؟

– بعمري ما حزرت شي .

– جرّب ، بركي بتحزر هالمرّة .

رفع وليد شفته اليسرى قليلًا ، فتكوّرت وجنته ، في حركة غير إراديّة يقوم بها عندما يشعر بالإحراج . طلب منه ألفرد مجدّدًا أن يحزر .

– إسمك؟

– لأ .

– Peace؟

– تؤ .

– Love؟

– . . (دخّن ألفرد سيجارته ، ورفع حاجبيه أن لا)

كان وليد يشعر بسخافته كلّما أجاب إجابةً خاطئة إلى أن توقّف تمامًا عن الإجابة . استنفد محاولاته . أخذ علبة الدخان بحركة عصبيّة

عن السرير، فتحها وأخرج سيجارة. ضحك ألفرد عندها وقال:

– ما بتحبّ تخسر.

– غلطان. أنا دايمًا بخسر.

أجابه وهو يولع سيجارته.

بعد هذا الحديث، انتظر وليد أن يفصح ألفرد له عن معنى الرسم، لكنّه لم يفعل. انشغل بشيء، ولم يتذكّر هو أن يسأله من جديد في اللقاءات التالية.

بلى، تذكّر. لكنّه فقط تحاشى أن يسأل، وألفرد لم يفتح الموضوع مرّة أخرى.

رغم ذلك، أتمّ وليد درسه على أكمل وجه. حفظ الرسم. لم يتطلّب الأمر منه أكثر من نظرة واحدة ولثوانٍ قليلة، فيما ألفرد نائم أو غير منتبه. ثم سهّل الإنترنت مهمّته. دخل إلى مواقع يابانيّة. غاص في الأشكال الغريبة حتى وجد ضالته: الشكل المكرّر الذي يؤلّف الوشم. نسخه وألصقه مكرّرًا إيّاه مرّتين على «Google Translate»:

ح ح

أتاه الجواب بالإنكليزيّة:

Here

والعربيّة:

هُنا

سرق وليد ورقًا مقوّى، أقلامًا، ومقصًا من تلك الموجودة على طرفيْ المكتب. تربّع على الأرض وأخذ ينسخ الوشم. كان باستطاعته أن يرسمه من دون أن ينظر. لكنه أراد أن يحقق رسمه بالطريقة التقليدية، وأن يتجنب أي أخطاء.

أحيانًا، تلفت نظره تفاصيل محدّدة، تصبح هي فقط ما يذكّره بالمشهد أو الشيء. عندما أخبر ألفرد عن هذه الملكة، قابلها الأخير بشكل عادي قائلًا: «عادي. هيدي ذاكرتك البصرية». كعادته، ندم وليد على إفشاء هذا «السر». كان كلامه يتناقص بتراكم الأحداث، وبدأ يشعر من جديد أن السخافة تتعاظم، وتتراكم، فقرر أنه لن يتكلم إلا عند الحاجة الملحّة، وأنه سيكون إنسانًا صامتًا.

وكما دائمًا، أسقط وليد قراره. إذ إنّ شيئًا ما مع ألفرد يشعره بأن أي شيء يسهل تبريره والتغاضي عنه. لا يعرف إن كان يعرّف الأمر بطريقة صحيحة.

ابتسم ألفرد في سريره. لولا أن وليد متيقن من نومه، لقال إنّه يعرف، وإنّه يراقبه. ألفرد لا يتوقّف عادةً عن الضحك. الضحك عنده مبتذلٌ لكثرته، أما الابتسام فأقل، بل يكاد يكون نادرًا. لوليد نظرية أخرى يثبتها أيضًا بمرور الأيام: ألفرد لا يعني ضحكَه، ولكنه مؤكد يعني ابتساماته.

في الشرفة، مع الرجال الخمسينيّن، ضحك ألفرد، كما دائمًا، وقال لوليد: «الحرب قامت يا بيبي»، ثم نفخ من سيجارة

الحشيش وأعطاه إيّاها. رفضها وليد وأعادها مبرّرًا أنه لا يشعر اليوم بالرغبة في التدخين.

ألفرد عقّب ضاحكًا:

– عمومًا بس تقوم الحرب، ح يصير فيه منّو كتير. ونوعيات لا ناشفة ولا شي. زيت الله وكيلك ح يجي. زيت!

استقبل وليد الضحك بحدّة:

– عم تحلم! حرب؟ ح تكون باهتة. بتزهّق. كل اللي بدو يصير، صار بهالبلد. كل اللي ح ينعمل معمول قبل.

– بس هيدا مش معناتا انو مش ح ينعمل عن جديد!

متى حدث هذا؟ منذ ثلاثة أيام؟ أربعة؟ خمسة؟ تختلط الأيام على وليد وهو يرسم. يكون داخل الشيء، معزولًا إلا من تفاصيل خارجية لا يعرف كيف تقتحم هي وحدها فقاعته. يكون داخل الفوضى يحاول ترتيبها.

لكن هل يرتّبها فعلًا أم يهذّبها؟ أم يضيفها إلى فوضاه فيزيد الفوضى عبثًا؟

كان بإمكانه أن يعود إلى كاراكاس منذ البارحة. لم «يعلَق» كما قال ألفرد. المسافة بين كليمنصو وكاراكاس ليست كبيرة، ويستطيع قطعها مشيًا عبر الحمراء، وفي الحمراء لم تحصل أيّ معارك تذكر. المعركة الأساسية التي كانوا يسمعون صوت رصاصها في كليمنصو أتت من محور الملا / كركول الدروز – حي اللجا / زقاق البلاط.

حين نزل ليشرب القهوة في النهار الثاني للاشتباكات، وجد وليد الناس في الحمراء يواصلون حياتهم كما في الأيام العادية. مرّ بقربه بعض المسلحين، في شاحنة صغيرة كُدِّسَت فيها فَرْشات من الإسفنج. كانوا يلبسون الأخضر والبنّي الداكنيْن.

عرف وليد من ملامح المسلحين والفَرْشات المحمولة أن العراك سيمتد لأكثر من يوم. فيما عدا ذلك، أكملت الحياة في الشارع، وإن بتواضع. لم تكن هناك الزحمة المعتادة، واختفت بعض الجرائد المحسوبة على بعض الجهات السياسية من أكشاك الصحف، إلا أنّ قلّة ممّن كانوا في الشارع تصرّفت بطريقة شبه طبيعية.

لاحظ وليد من الأحاديث التي التقطتها أذناه أن الناس تتحاشى الكلام عمّا حصل. لم يكن هناك حالة اعتراض عند رجال الشارع. أصحاب بعض المحلات المفتوحة كانوا حتى يسلّمون على المسلحين بأسمائهم، وهذا جعله يسأل: متى تسنّى لهم الوقت أن يصادقوهم؟

وحده صوت النسوة لعلع محتجًّا، ردًّا على تحرّشات بعض المسلحين. وليد نفسه رأى عراكيْن خلال مشيته القصيرة. في المشكل الأول، قامت فتاة عشرينية بشتم المسلحين، وأكملت طريقها، فيما كادت امرأة أربعينية (بدت له صحفيّة) أن تتهجم على أحد المسلحين في المشكل الثاني. في الحالتين، ضحك المسلحون، وغادرت الإمرأتان وهما تشتمانهم.

متابعًا العراكيْن من دون أن يتدخل، وقف وليد يحتسي قهوته من

محلّ صغير في شارع جانبي. قال الرجل صاحب ماكينة القهوة محدثًا نفسه، ومن دون أن تتطوّر جملته إلى حديث: «هالنسوان بـ ١٠٠ رجّال منّا».

بالكلمتين نفسيهما، «الرجّال منّا»، كان أبوه يفتتح مناكفاته مع أمّه عندما تحاول استدراجه إلى عراك. «الرجّال منّا مش فاضي لسخافاتكم»، «الرجّال منّا مش فاضي لهالتفاصيل، نحنا مْنِهتَم بإشيا أهم»، «الرجّال منّا بيتعب عشان..». كانت العراكات اللطيفة تستحيل بين والديه معارك كونية بين الرجال والنسوة، وتُحمِّل ما لا تحتمل.

«كله من برامج الصبح»، كان أبوه يقول، محيلًا أسباب العراكات إلى برامج الصباح التلفزيونية التي واظبت زوجته لفترة ليس قصيرة على مشاهدتها وهي تطبخ.

وبالكلمتين نفسيهما، «الرجّال منّا»، كان الأب يفتتح محاضراته التوعويّة التي كان يحرص على عقدها مع ابنه في آخر أيامه. وليد، وإن كان ضمنيًا يكره هذه المحاضرات، كان يشعر بواجب تجاه أبيه. هو دائمًا حافظ على شيء من الوقار والاحترام معه. لا يتذكر يومًا أنهما تعاركا، ولا مرة ضربه أبوه أو صرخ عليه حتى وهو طفل. أمّه اهتمت بكل هذه الأشياء، وهو عامل أباه دائمًا كملجأ.

ربما لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، لم يفكر يومًا بإعلام والده عن هويته الجنسيّة. بدا الأمر له مستحيلًا. كلمتا «الرجّال منّا» لا يمكن أن توصل إلى استيعاب خبر كهذا، مهما كان أبوه لطيفًا معه.

عندما بدأت أمّه تسأله لمَ لا يتزوج، أخذ الموت أباه، ولم يتسنّ لها الوقت أن تنقّ كسائر الأمهات. توقع وليد أن توجّه عراكاتها تجاهه، لكن حزنًا عميقًا لفّها. لم تكن تخلع الأسود، وكادت تتوقّف عن الكلام. صمتت لأكثر من يوم. لم يخطر يومًا له أن والديه كانا متحابّين بعضهما. بعد موت والده، أعاد النظر في كثير من أفكاره الجاهزة عنهما. أخذ يبحث في ألبومات صور قديمة. قرأ رسائل قديمة كان يكتبها أبوه لأمّه وهما شابان. قرأها من دون أن تعرف أمّه، وهي أصلًا لم تكن لتهتمّ، إذ صارت تقضي يومها في النوم. لم يفهم وليد للوهلة الأولى. أمّه المواظبة على برامج الصباح وخالقة العراكات من لا شيء، كانت تقرأ رسائل حب؟ أمّه البسيطة جدًا كان يُكتَب لها رسائل حب؟ شيء ما بان غير منطقي، لكن الصورة استقامت مع غوصه في تفاصيل الرسائل وبطاقات البريد.

بطاقة بريدية

حبيبتي الحلوة،

بيمرق الوقت بطيء وأنا بعيد عنك.

الشهر الجايي بكون ببيروت.

الكويت، ١١ شباط ١٩٧٧

أحبّ وليد أمّه من جديد. اشتاق لسماعها تتهكّم على دراسته أو

عمله. عندما احتجّت لدى والده لمّا انتقى اختصاصه الجامعي: «شو يعني يرسم؟ منّو شاطر وما بعمرو عذبنا بالمدرسة! ليه يرسم؟ يفوت هندسة!»، جابهها والده: «الولد بيعرف شو بدو»، وبعد أن اجتمع به اجتماعًا مغلقًا، سأله متأكدًا من خياره:

– هيك بدك يا بابا؟

– إي بابا.

– طيب.

قاطعته أمّه لأيّام. لم تعد تسأله إن كان يريد أن يأكل، زادت حدّة التهكّم عندها. أبوه كان يضحك، ويبدأ جمله بـ «الرجّال منا»، فيقهقان معًا. بعد فترة بسيطة، انفرد به في مقهى بيروتي. وفي واحدة من محاضراته التوعوية، قال له:

– ما تزعل من إمك يا بابا. هيدي طريقتها للتواصل. إسألني أنا. بس هيّي ما في أطيب منها.

لم تتغيّر أمّه إلاّ بعد أن مرض وليد مرضًا مزمنًا. كان يقضي ليالي طويلة في الجامعة. اعتاد القهوة والدخان. فقد وزنًا. صار لا يستطيع أن يأكل. يشرب فقط، ويتجشأ كل الوقت. دخل المستشفى لإجراء عملية منظار معدة. رافقته أمّه. الحكيم قال بعد أن خرج من العملية: «القهوة ممنوعة، ولازم يلتزم بمواعيد محددة للأكل وفي أكل ممنوع ياكله». قال وهو يكتب وصفةً بالأدوية التي عليه أخذها، إن الأمر تحالف بين الضغط النفسي وهياج الأغشية المعدية ما أنتج قرحة، ومن

الممكن أن تسوء الحالة أكثر إنّ لم يتبع التعليمات.

تكفلت أمه بنظامه الغذائي الجديد. صارت تحضّر له وجبات اليوم في أوعية بلاستيكية صغيرة، وتلاحقه على الخليوي خارج البيت، وتقتحم غرفته سائلةً إن أخذ الدواء، أو مستفهمةً لماذا لم يأكل الوجبة.

كانت تتواصل معه بطريقتها الخاصة، ثم فقدت كل شيء مع رحيل أبيه، وفقدها معه. لم تعد تشاهد التلفاز ولا نشرات الأخبار، وكانت السياسة صارت شغلها الشاغل قبل موت زوجها. قالوا إنّ الحكومة تصارع بعضها بعضًا، إنّ البلد يكره بعضه بعضًا، إنّ الانفجار آتٍ لا محالة. أم وليد، لم تبدِ أي ردة فعل تجاه أي من هذه الأخبار. كان عمق سكوتها يقول إنّ هذه الأشياء طارئة، إنّ هذه الأخبار تفاصيل تافهة وإنّ أهم ما في حياتها هو قصتها مع زوجها الميت. أدارت ظهرها لكل شيء. حتى ابنها ونظامه الغذائي. دخل وليد للمرة الأولى المطبخ. شعر للمرة الأولى أنه أعزب. بقيَتْ هي في غرفتها، وصار هو يحضّر لها الطعام.

في الرابع من أيّار، دخل عليها الغرفة. هزّها في سريرها. لم ترد. ظنّها نائمة. أحضر كرسيًا خشبيًا وجلس قربها. بقي يتأملها لساعة. لم تستيقظ. شعر أن فكها يسقط. أنها صارت بنصف وجه، كرسومه. أتى برباط ولفّ وجهها مغلقًا فمها. رفع خليويّه وتلفن لأفراد العائلة القلائل الباقين في البلد، وأعلمهم بموتها. دفنوها في اليوم التالي في جبانة الباشورة. دفنوها فوق أبيه. وقف وليد فوق القبر الذي فتحَ

مرتين في ستة أشهر. هذه وقفته الثانية التي يطلَب منه فيها أن يهيل التراب فوق كيس ميت بالرفش. فعل المطلوب من دون أن يتردد كما في المرة السابقة يوم مات أبوه. صار خبيرًا.

وقف يصافح أناسًا كثيرين لا يعرفهم. بعضهم قبّله، وبعضهم عانقه، وبعضهم اكتفى بالسلام. في اليوم الثالث للعزاء، اتصل بألفرد وأخبره. زاره الأخير في شقّته. كانت هيئته غريبة، وكان وليد قليل الكلام. جلسا لعشر دقائق في غرفة القعود ولم ينطق أي منهما بشيء، ثم غادر ألفرد معتذرًا. بعد نصف ساعة، حمل وليد خليويّه وطلبه من جديد. سأله إن كان مشغولاً، فأجابه أنه في البيت. بعد ساعة، وجد وليد نفسه في شرفة شقّة ألفرد، يبكي في حجره.

الآن، وهو ينهي رسمه، ينقلب كل شيء عنده في لحظة، ليصير بلا طعم. موت والديه. نومه في سرير ألفرد. الأرضية الخشبية الصماء. ملصق المثلات. وهذه الحرب الصغيرة المنظّمة جدًا، المحدودة جدًا، الموضعيّة جدًا.

لولا المقارنة التي قد تكون غير موفّقة، لقال إنّ هذه الحرب تشبه دماغه. هو لم يعش الحرب اللبنانية كاملةً. يذكر آخرها، آخر سنتين تحديدًا. يتذكّر أنه تغيّب على المدرسة كثيرًا، وأنه تعرّف على الشرقيّة مبهورًا مع رفاقه المراهقين. يتذكّر سن الفيل، والكسليك، وجبيل، وجونية. بعد أشهر من النهاية المعلنة للحرب وتسلّم حكومة واحدة مقاليد الحكم، أخذه أبوه إلى وسط البلد. مشّاه فوق الخراب. كانت

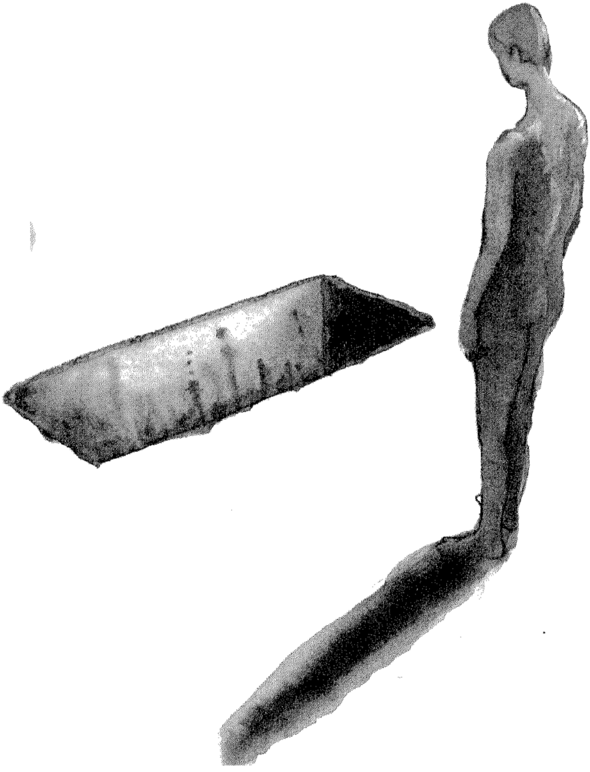

الفوضى عارمة، وكان هناك زوّار كثر، وكانت أمّه تصرخ عندما يبتعدان قليلًا عنها أن يظلا قريبين:

– ما حدا بيعرف. يمكن بعد فيه ألغام.

صوّره أبوه كثيرًا. تصوّر معه. تصوّرت العائلة كلها. يحتفظ وليد بالصوَر. هذه الصوَر القليلة هي المدخل. هي «ذاكرته البصرية» لتلك الزيارة التي يتذكّرها بتفاصيلها. منذ ذلك اليوم، قرّر أنه سيرسم. منذ اللحظة التي أشرف فيها على الوسط بتلال أتربته ومخلّفاته ودماره، ليجده شبيهًا بالشعر الكثيف المنفوش. يتذكّر اللقطة العالية من تلّة الردم التي وقف فوقها. الصورة زارته أكثر من مرة في أحلامه. الآن، وهو ينهي رسمه، لاحظ ما يبدو عاديًا وتافهًا لكثيرين: هناك شَعْرٌ أيضًا في الأنصاف العلوية من الوجوه.

نهض وليد تاركًا ما أنتجه على الأرض. حمل فقط ما استعاره من أدوات وألوان وأقلام ومقصّ وشفرات وأعادها كلها لأمكنتها على طرفَيْ المكتب. وقف قليلًا واستند بيديه إلى طرف المكتب. كان الصبح على وشك الحلول. رأى شعاع نور خفيفًا يأتي من وراء سحابة، وأشارت الساعة الرقمية على المكتب في تلك اللحظة إلى الرابعة صباحًا. شعر بنفسه عرقانًا. التفت معطيًا ظهره للضوء كأنه أراد لنور الصباح أن يمحو عرقه ظهره البارد. مسح بكفه القطرات السارحة على جبينه. بان له سرير ألفرد من جديد. وجده لم يتحرّك. تغيّرت فقط تعابير وجهه. لعله يُكمل الحلم، فكّر وليد. لعله يُكمل الحلم.

كأنه يناديه، وقع كتاب صغير من كتب الرفّ القليلة قرب الملصقات. اقترب وليد ليلمّه، وابتسم عندما رأى عنوانه. نظر مجددًا إلى ألفرد الذي كان يتقلّب إلى الناحية الأخرى من السرير مواصلًا النوم. اتجه إلى الكرسي، ارتدى ملابسه مسرعًا، انتعل حذاءه، فتح حقيبته المحمولة، ضبّ فيها ما أنهاه على الأرض، وضع الكتاب

أيضًا، أضاف أشياء أخرى التقطها من على المكتب بعجلة، وخرج.

مشى وحيدًا في الشوارع. لاحظ أن لا سيارات عابرة. أن لا قططًا على الحاويات. أن لا عمال نفايات في ثياب خضراء على النواصي. أن لا أناس يرتشفون قهوة باكرة. أن لا محلّ من المحلات مفتوح. كان شعاع الضوء، يزداد ويتوسع بخجل كما في المشاهد الأساسية من الأفلام المصرية القديمة التي لم يشاهدها وليد. احتاج المشهد لأغنية مرافقة، لتلحم كل التفاصيل بعضها ببعض، وليحظى البطل بلحظته، ولتنظف فوضى الرأس، وتسرّع من مرور الزمن الضعيف، وتشذّب الإضافات، ويخصّ ألفرد بعدها المشهد بملصق آخر على حائط غرفته.

مشى بلا اتجاه حتى وجد نفسه في شارع الحمراء الرئيسي. توقّف أمام حائط. أخرج حاجياته من الحقيبة. بدءًا، حاول أن ينظف الجدار ثم بدأ يلصق الصور المفرّغة التي أنتجها على أرض شقة ألفرد. عانى في لصق الورق المقوّى. كلما ألصقه، وقع. مرّ شاب منزّهًا كلبه قربه. ربط الكلب بعمود كهرباء وأخذ يراقب وليد، ثم لم يلبث أن اقترب ليأخذ منه مهمة تثبيت الورق. لم يتبادلا الكلام. ابتسم وليد له فقط، وانهمك يخرج حاجيات أخرى من الحقيبة. ثم بدأ يرش ألوانًا محاذرًا أن يلوّث يدي الشاب وثيابه. كرّر الخطوات عدّة مرات، وابتعد إلى الوراء محدقًا إلى الغرافيتي.

ناظرًا إلى الحائط، فكر وليد في الكتاب الذي لفظه رفّ كتب ألفرد ودسّه في حقيبته: «الأمير الصغير» لأنطوان دي سان إكزوبيري.

أراد أن يتجه ناحية حقيبته في جهة أخرى ليضبّ حاجاته المتناثرة على الأرض. لم يوقفه إلا تحرير الشاب للكلب على عجلة وهروبه باتجاه شارع فرعي. لم يفهم وليد ما حدث. التفت ليجد سلاحًا مصوّبًا باتجاهه. سأله المسلّح عمّا يفعله هنا بالقرب من مركز الحزب. بقي وليد صامتًا ولم يُجِب. عاد تفكيره، بلا سيطرة منه، إلى الكتاب الذي لفظه الرفّ. تساءل عن مصير «الأمير الصغير» في خاتمة القصّة، واكتشف أنه لا يتذكّر النهاية على الإطلاق.

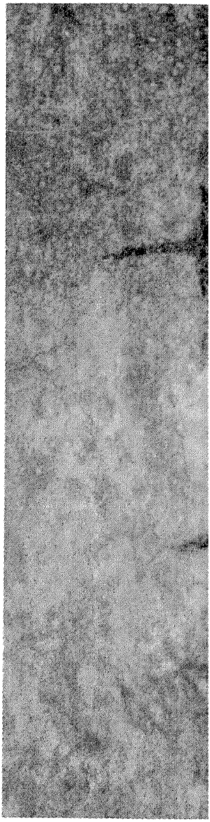

رسم الفصل التالي: براق ريما

الليمبو

“

في الغرفة الزجاجية في بيتنا الكائن في إحدى تلال المنصورية، وقفْتُ وحيدًا أنظر إلى بيروت تتلألأ في البعيد. من موقعي، بدَتْ لي العاصمة نهاية العالم. فكَّرْتُ أني لو وصلتُ إليها بالسيارة، لوجدْتُ أرضًا تنتهي بوادٍ عظيم. هذا الاقتناع جعل فكرة محددة تعشش في رأسي كما أغنيات الإذاعات: بيروت وادٍ عميق لا نتبينه إلا أحيانًا، نعيش فيه كل يوم، نذهب إليه كل يوم، ولحظة نتبين أننا نعيش في وادٍ، لا نعود نعرف كيف نصل إليه. نصير فوق، على الحافة. هو تحتنا تمامًا، وبعيد تمامًا.

أخذَتْ التلال بيني وبين الوادي السحيق تضيء وتنطفئ بالأضواء. كانت تلة تسلّم للأخرى. يبدأ التقنين في منطقة وينتهي في منطقة تالية. ثم صارت الأنوار ترتجف أكثر، فتترك تلة أولى وتنتقل توًا إلى التلة المحاذية. كأن ضاغط الزر في مؤسسة كهرباء لبنان أخذ يخطئ أخطاء متتابعة، فيضيء منطقة ويعيد إطفائها. أمامي، مشى موج النور على التلال، حتى وصل غرفتي.

انقطعت الكهرباء.

قلبُ محول كهربائي واحد كان كافيًا للانتقال إلى خدمة المولِّد.

الطريق من الغرفة الزجاجية إلى علبة الكهرباء في مدخل الشقة تحوي درجات قليلة صعودًا، وأخرى نزولًا. تاكارا صمَّمَتْ الطريق. أقنعتْني أن هوية كل غرفة يجب أن تختلف جذريًا عن الغرف الأخرى، وأن هذا سينعكس على عيشتنا. هكذا، رأتْ أن اللون الدافئ للجدار يلائم غرفة القعود، وانتقَتْ لونًا ناعمًا باهتًا لغرف النوم، وآخر فاقعًا لغرفة المكتب، يلائم جو عملي (قالت). لم تقتصر تحديثاتها على الألوان. اشتغلت على الأسقف أيضًا. العلوّ المختلف يجعلك تشعر أنك تتنقّل في أكثر من مكان. هنا، تقرّب الأرضية الخشبية السقف فيكاد يطبق عليك، وهناك يُشعِرك البلاط المحفور مع السقف الزجاجي أن المكان أكثر براحًا.

هذا مكان لكل أمزجتنا، قالت.

عندما بدأنا مشروع الانتقال إلى هذا البيت، رجَتني أن أعطيها فرصة شهر. حجزت لي غرفة في أوتيل في الأشرفية، وأكدت عليّ أن لا أقرب الورشة. طلبت مني أن أركّز في العمل على روايتي.

– أتصل بك إن أردت شيئاً، وتتصل بي إن أردتَ الاطمئنان. لا تقلق، سأتصل. سأحتاج المال. لا تقلق.

.. وأنا لا أقلق معها البتة. لا أعرف أصلًا كيف استطاعت التواصل مع ناس غرباء لا تتكلم لغتهم. كيف شرحت لهم وفهمَتْهم.

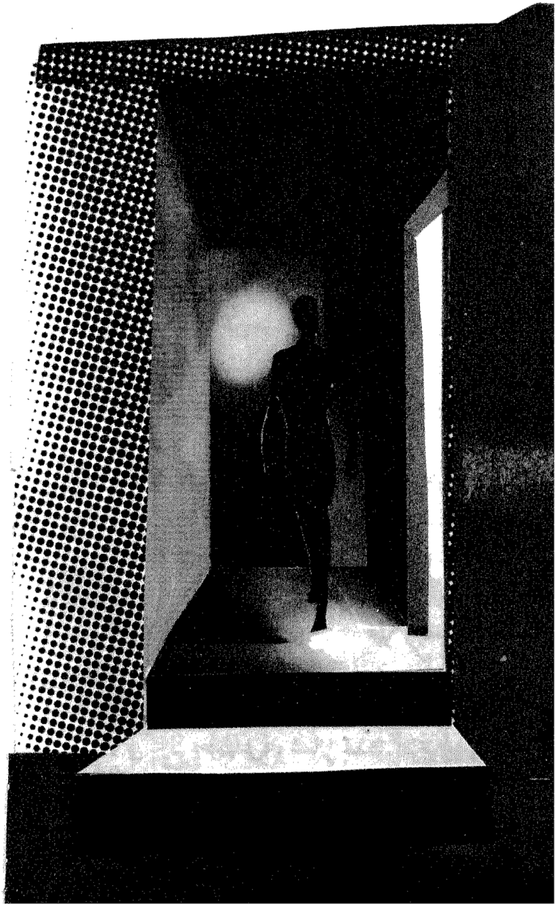

تاكارا دائمًا هكذا . تأخذ الأمور على عاتقها ، حتى في أصعب الظروف . تخطط للمشاريع من الألف للياء . عندما نحضر لإجازة ، تتكفل هي باللازم . تقرأ كل شيء عن البلد بلغتين . تكتب ملاحظات ، تقرر جدول زيارات ، تحجز لدى شركات الطيران والنقل المحلية والفنادق . لا تترك تفصيلًا إلا وتبحث عنه وفيه .

بعد أكثر من إجازة قمنا بها سويةً، لم أعد أصف إجازاتنا بالإجازات . صرت أتندر وأقول لها:

– ألم يحن وقت مشروع من مشاريعك إياها؟

كل مرة ، لم تكن تضحك ، أو تزعل من هزأي . على العكس ، تُحضر اللابتوب . تفتح على خريطة وتأخذ تركّز ، وتعابير وجهها تسأل بوضوح من دون أن يعلو لها صوت: أين نذهب؟

هذا عامنا الثالث متزوجين ، ولا زالت لا تفهم دعاباتي ، ما جعلني أصير شبه أكيد أن روح الدعابة يختلف جذريًا من ثقافة إلى أخرى . لكنّ الشيء الحسن أن زكزكاتي لم تنقلب يومًا سوء فهم معها .

تعرفْتُ إلى تاكارا عندما كنت أدرس الأدب المقارن في جامعة «غولد سميث» بلندن . رأيْتُ فتاةً بشعر أسود وعيون ضيقة تجلس على العشب محاطة بالكتب . في حرم الجامعة كنا نلتقي . أسلّم فتومئ لي برأسها . أتابع قراءتي ، وتكمل هي عملها . لم نتحدث فعليًا إلا عندما التقيْتُها صدفةً في بارك «غرينيتش» ، شمالي لندن . أذكر أنه كان يوم

أحد، وأنّ الشمس كانت ساطعة على غير العادة في تلك الفترة من السنة، وأنّ العشب كان أكثر اخضرارًا.

كل شي كان مهيئًا لتواصلٍ يتعدى السلام وإيماءة الرأس.

قضينا ساعات بعد الظهيرة نمشي شوراع لندن. نصعد الباصات وننزل منها. أكلنا ساندويتشات وتحلّينا بفطائر. الساعة السادسة كنا قد وصلنا جنوبي لندن. ثمّ لم يستغرق الأمر أكثر من أسبوع، قبل أن تكثر زياراتنا لمكانَيْ إقامتيْنا. أنا أذهب إلى «دورم» الطالبات، وهي تأتي إلى شقتي التي أتشاركها مع أصدقاء مغاربة.

بعد شهر، أعلنَتْ لي عن رغبتها في الانتقال للعيش خارج دورم الطالبات. قلْتُ إني سأبحث لها عن شقة. عندما نقلْتُ الخبر لصديقي المغربي غالي، أخذ يصرخ فيّ. «حمار، حمار!»، ثمّ أضاف أن «البنت» ترسل لي إشارة برغبتها الانتقال للعيش معي، وأنه يجدر بي عرض الأمر عليها.

لم توافق تاكارا فورًا. بدا عليها الامتعاض .لكنها عادت بجواب إيجابي بعد يومين. يومان قضيتهما متوعدًا غالي أني سأقتله لو ساءت الأمور. كان يضحك ويقول:

- كل شيء مزيان آصحيبي .

غالي كان على حق ، ومشت الخطة أسرع مما أتوقع .

ساكنتُ تاكارا لسنة . عشنا سويةً . مارسنا حياتنا كزوجين . صرنا نعرف متى نسكت ، ومتى نتكلم . متى نتمتَّع بمساحاتنا الشخصية ومتى ينتظر أحدنا الآخر أن ينتهكها ويسأل أكثر . تخرّجنا معًا . صرتُ أنا مساعدًا متخرجًا في الجامعة ، وذهبَتْ هي لتعمل في نوتنغهام في شركة للتصميم الداخلي . كانت تأتي لندن لتراني كل سبت ، فيما تفاديْتُ أنا أن أذهب إلى نوتنغهام لسبب وحيد:

أنا لا أستقل القطارات .

اكتشفْتُ رهابي من القطارات في الشهر الأول لقدومي لندن . أصدقاء أصدقائي العرب دعوني لأزورهم في مانشستر . قطعْتُ التذكرة ووقفْتُ أنتظر في المحطة . كلما مرّ قطار مسرع بالقرب مني ، إما مغادرًا أو واصلًا ، كنْتُ أحس بضيق . عندما وصل قطاري ، وقفْتُ أمام الباب المفتوح لثوانٍ معدودة . كان بالإمكان أن أقف أكثر ، بل حتى أن أتراجع عن الصعود ، لكن الرجل الضخم ورائي ، دفعني إلى الداخل طالبًا مني الإسراع لأن الباب سيقفل أوتوماتيكيًا . وجدْتُ نفسي مع حقيبتي الصغيرة في الداخل . بينما انهمك الناس بتوضيب أمتعتهم ، كنت بدأتُ أفكر بالترجل . لكن القطار ما لبث أن انطلق ، ووجدْتُ نفسي محاصرًا في المركبة المتحركة . لم أستطع أن أجلس على المقاعد العادية كما الآخرين . تجمدَتْ رجلاي . بقيتُ في

مطرحي، في المساحة التي تصل مقطورةً بأخرى، قريبًا من الباب. كلما توقف القطار كنت أفكر بالخروج، ثم أتراجع عندما أفكر أن خطوة كهذه قد تجعل الامور أكثر سوءًا. ماذا لو انتهيتُ في مدينة صغيرة لا تحوي محطة باصات؟ ماذا أفعل إن نزلتُ ولم أجد باصًا يوصلني إلى مانشستر في ذاك الوقت؟ ماذا لو كان التاكسي للعودة للندن، أو لمواصلة الرحلة مُكلفًا؟

قررْتُ أن أبقى. كان العرق البارد قد بدأ يبلل قميصي. وبدأ وضعي يسوء عند دخول القطار في الأنفاق الحجرية أو مع مرور قطار آخر على السكة المجانبة، منتجًا صوتًا غريبًا عند التلامس. انتابتني حالة من الغثيان المستمر لكن معدتي الخاوية منعتْني من التقيؤ. كان القطار يسرع ثم يبطئ فجأة عند الاقتراب من محطات توقفه. أضاف ذلك إلى غثياني دوارًا. كانت حالتي تتصاعد من دون أن تصل إلى القمة. ظللتُ أنظر من موقعي إلى السكة الحديدية المحاذية تركض. رأيتُ حدائد السكة تتباعدان وتلتفان ثم تقتربان وتتقاطعان، قبل أن تتباعدا من جديد. مرت سيدة جميلة، وسألتني إن كان بي شيء. أشحتُ لها بفظاظة أن تبتعد. لم أكن قادرًا على التواصل مع الناس. كانت رؤيتي بدأت تصير مشتتة.

وصلتُ إلى مانشستر مصابًا بإعياء شديد. ما إن تعرفتُ على أصدقاء أصدقائي العرب في المحطة، ورأوني على هذه الحال حتى بادروا مستفهمين إن كنتُ على خير.

نمتُ طيلة ذاك النهار. كان رأسي ثقيلًا وكنت فاقدًا للشهية. لمّا فقتُ، رافقني صديقي إلى إحدى ساحات مانشستر. مشينا كثيرًا. وجدتُ أضواء المحلات تضيء بطريقة غريبة. كان كل شيء ملونًا. شممتُ رائحة الكعك البلجيكي. كانت الرائحة نفاذة وجديدة عليّ، أنا الذي لا تربطني علاقة تذكَر بالروائح، حتى أنني أحيانًا لا أشمها. وقفتُ أمام البائع المتجول ملتهمًا كعكتين اثنتين بالشوكولاتة المرة، وشعرتُ بالامتلاء للمرة الاولى منذ زمن.

عدتُ إلى لندن بالباص الليلي. قطعًا، منع رهاب القطارات عني اكتشاف مناطق كثيرة من بريطانيا. الباص والطائرة كانا البديليْن، لكن الباص لا يصل إلى كل الأمكنة أو يستغرق الكثير من الوقت، أما الرحلة بالطائرة فعادةً ما تتكلف أكثر في حال الحجز المتأخر. صديقي غالي لم يفهم يومًا كيف أني أركب الطائرة ولا أطلع القطار. كنتُ أقول له: أنا نفسي لا أفهم.

في المرة الأولى التي نمت فيها مع تاكارا بعد انتقالها للعيش معي، توقفتُ عن تقبيلها. رفعتُ وجهي العرقان وقلتُ بنبرة حازمة: «قبل أن نواصل، ينبغي أن تعرفي عني شيئًا». نظرَتْ إلي وهي تحيط وجهي العرقان بكفيها مستغربة، كأنها تتوقع اعترافًا خطيرًا، فواصلتُ حازمًا: «أنا لا أصعد القطارات».

نظرتْ إليَّ غير فاهمة ثم ضحكَتْ.

لم تكن هذه واحدة من دعاباتي غير المفهومة. كنتُ أقصد تمامًا

ما أقول . شيء ما داخلي كان يقنعني: قبل أن تَنَمْ مع الفتاة ، عليك أن تخبرها عن رهابك . لكنني جاريْتُها وضحكتُ ، وواصلنا الحب .

لم تستعِدْ تاكارا هذه الحادثة إلا عندما عرضَتْ علي بعد فترة الذهاب إلى ليفربول في القطار. كان جوابي حازمًا: «بالقطار، لا» . عندها فقط تذكرَتْ ، وعرفَتْ أنني لم أكن أمزح ، وأنها ضحكَتْ خطأ .

عندما تزوجنا ، انتقلَتْ تاكارا للعيش معي في لندن . أحسَسْتُ بالذنب . تركَتْ عملًا تحبه من أجل أن تنتقل إلى حيث أفضل أن أسكن أنا ، لكنها أوضحَت لي أنّ هذا خيارها وأنّ علي التوقف عن لوم نفسي . أحتاج فترة من الراحة ، تابعَت . أحتاج أن أنظر إليك قليلًا من دون أن أفعل أي شيء .

لم أسألها أكثر . لتاكارا عبارات غريبة ، أنتبه أحيانًا أنها تحتمل أكثر من وجه وأكثر من معنى ، ورغم أنها تبدو عادية جدًا إلا أنها تبدو تقارب الفلسفة أحيانًا . الأمر يعتمد على مزاجي . لعل هذا من

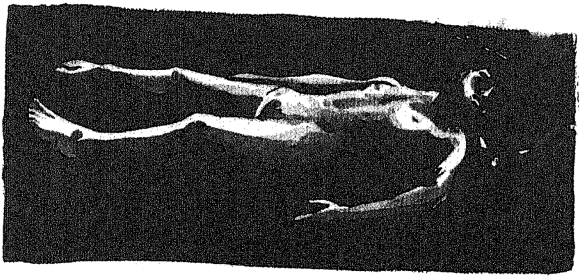

تأثيرات دراسة الكتابة الإبداعية والأدب المقارن؟

تاكارا نفسها أفصحَتْ لي أكثر من مرة أنها تراني أحوّل الأشياء إلى مضمون روائي. قالت إن هذا شيء رائع لكن استمراري المنهِك بفعله يقصيني دائمًا عن أشياء كثيرة.

يقصيني؟ سألتُها.

شرحَتْ أكثر. قالت إن الاشياء حولنا محايدة. إنها سواء. نحن من نرفعها إلى مراتب عليا أو نهوي بها إلى تحت. حتى التقزز، هو تعريفنا. حتى الأخلاق، هي تعريفنا. الصح تعريفنا، والخطأ تعريفنا. ونحن من ننهمك بتعريف غيرنا من دون أن يعني ذلك التعرّف على من عرَّفناه. نحن نعقّد الأشياء ونبسّط العلاقات فيما بينها. نقوم تمامًا بعكس الحقيقة. الأشياء بطبيعتها بسيطة، لكن تتواجد ضمن حلقة علاقات معقدة. أنت لمّا تكتب، تعقد الأشياء، وتبسّط العلاقات. الرواية تبسيط، قالت. هل تستطيع أن تنكر؟ حتى تلك القصص التي لا تبتغي الاسقاط الاجتماعي والسياسي وتسعى للترفيه حصرًا، أكثرها يبسّط في علاقات الشخصيات. لعلّ بساطة العلاقات هي البديل المرغوب؟ حتى الميلودراما الرخيصة تجدها تمتع أشياء مخفية في نفوسنا فنتماثل معها. أنت تروي لتُمتع؟ لكن هل الحياة ممتعة؟ لا تعرف؟ ربما؟ لا؟ غير مهم .المهم أنك عندما تفعل ذلك كل الوقت، لا عندما تكتب فقط، تخسر الكثير من العلاقات المعقدة، والكثير من بساطة الاشياء. أنت تبني المشهد الكامل، فتُقصي نفسك عن أشياء

أخرى ليس لها مكان في كمالك.

نظرتُ إليها مذهولًا. كنتُ أمام رواية لم أنتبه لها. نمتُ معها. شربتُ. أكلتُ. مشيتُ. صفرتُ. غنيتُ. لكني لم أكن منتبهًا. هل الانتباه بدوره هو بداية تعريف آخر؟ هل أنا أبسّط بالمجاز عندما أصفها بالرواية؟

أحسستُ يومها أن عينيّ تشعان وأنا أنظر إليها. كنت أراهما. عينيّ، أقصد. ابتسمَتْ وقالت لي، ها أنت تبني مشهدك مجددًا. أين أنا الآن في المشهد؟ سألتْني، ثم ضحكت ضحكتها اليابانية المميزة، وتركَتْني في حالة من الصمت المطبق وذهبَتْ لتحضّر الغداء.

عندما أتذكر تاكارا، تبدو لي آتية من مكان وزمن سحيقين. لقد سبقتْني إلى الوادي وأنا ما زلتُ فوق، أفتّش عن الدرج الحجري لأنزل. في لندن، صنعتْ تاكارا بيوتًا جميلة. كلما فتحتْ لي باب بيت لتريني، تفاجأتُ. بيوت كثيرة لم تكن تبدو من الخارج قادرة

على أن تحمل هذا الجمال داخلها. ألوان. أسقف. قطع أثاث صغيرة. اكسسوارات. كنتُ قد بدأتُ أعتقد جازمًا أننا نتماثل في شيئين: كلانا يبني مشهده الكامل. وفيما هي كانت تترك مشاهدها الكاملة داخل البيوت، كنت أنا أنغمس في مشاهد رأسي من دون أن أكتب كلمة واحدة في المشاريع التي أعلن عنها لدائرة أصدقائي.

كان الأمر صعبًا عليّ. تضج دماغي بأفكار ولقطات كثيرة، وحين أفتح اللابتوب وتلمس أناملي لوحة المفاتيح يتجمّد كل شيء. يبقى المؤشر يومض عند أول السطر. أحاول كتابة السطر فيخرج معي كلماتٍ مبعثرة أو جملًا ركيكة. يتوقف كل شيء في رأسي، ويدخل تفكيري في حلقة دوارة لا تنتهي من الليمبو. ليس سهلًا أن تنجح في نشر قصة في إحدى أرقى الدوريات الثقافية خلال دراستك، وتحظى عنها على جائزة مرموقة للكتاب الشباب، وأن تتخرج بعدها غير قادراً على الكتابة.

كنت أسيرَ قصتي الأولى. لا أقدر على التراجع والعودة إلى كتابة غضة غير مثقلة بالمعرفة، ولا التقدم لدمج ما تعلمته في كتابة جديدة عليّ. تاكارا كانت تلاحظني كعادتها، فتأتي وتعانقني من الخلف، وتبقيني كثيرًا في حضنها، ثم أحيانًا أنام، وأصحو لأجد نفسي على طرف السرير، وأسمع صوتها خارج الغرفة تغني باليابانية.

مرّت سنة ونحن في لندن. كانت الأمور في لبنان تغادر الستاتيكو. مرت ٢٠٠٥. طارت ٢٠٠٦. بدأت أسأل نفسي، لعله المكان؟ هل

أستطيع فعلًا أن أنتج في مكان لم أعش فيه إلا قليلًا من الوقت؟ هل أستطيع كتابة قصة تدور أحداثها في لبنان وأنا أراقب من الخارج؟ هل يمكن فعل ذلك بالبحث البعيد والتقنية المتعلّمة؟ لم أحصر أفكاري داخلي. سألتُها: تذهبين إلى لبنان؟ فاجأني ردها: نعم، ومباشرةً. قلتُ: ليست سياحة. أجابَتْ: أعرف.

أحياناً لا أفهم تاكارا.

أتينا إلى بيروت. استأجرنا شقة. تأقلمَتْ سريعًا. لا أبالغ إن قلت أن معظم أصحاب وعمال المحلات في شارعنا صاروا يعرفونها على الرغم من أنها لم تكن تتكلم العربية ولم تحاول تعلمها. لم أفهم كيف كانت تتواصل مع الناس. رأيتُها أكثر من مرة بالصدفة، لكنها في كل

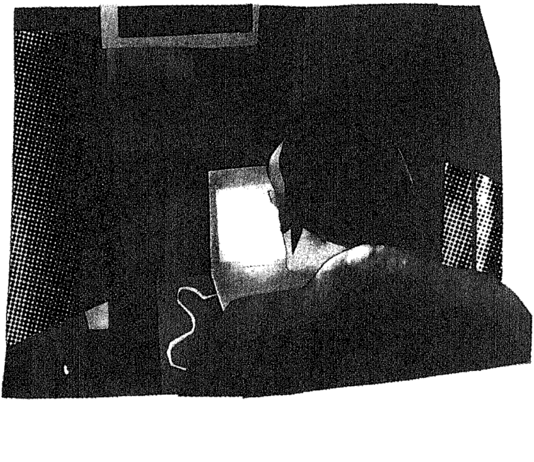

مرة كانت تعتمد طريقة مختلفة للتواصل مع محدثها، مرة بالتمثيل، مرة بالإشارة، مرة بالإتيان بنماذج، مرة بالرسم في دفترها الصغير، مرة باعتماد الانكليزية البطيئة، مرة بنطق الفرنسية السهلة، ومرة بخليط من اللغتين. هي التي طلعَتْ بمشروع بيت المنصورية. فجأة ومن دون مقدمات، قالت حرام أن ندفع كل هذه الأموال في الإيجار. أضافت أننا نملك المال لشراء بيت، فلِمَ لا؟ هكذا، اشتريناه، وبدأتْ تلوينه من الداخل، فيما كنتُ أجرب أن أكتب روايتي وحيدًا في الأوتيل.

في محاولتي الروائية، حاولتُ أن أبدأ زمنيًا. من البداية حتى النهاية، لكني وجدتُ نفسي ضائعًا. كانت المشاهد تهجم من رأسي إلى داخل الشاشة كأنها تتخطى حاجزًا ما. لكأنّ الباب فتح، وكل شيء على ما يرام. أخذتُ أدون كل ما يخطر على بالي. كنتُ واثقًا أن الصورة ستتضح قريبًا، وأني سأعيد ترتيب الأشياء. سأفعل ذلك بعد تدوين هذه الفوضى، أقنعتُ نفسي حينها.

لكنني وصلتُ إلى السد، ما إن انتقلنا إلى المنصورية. شعرتُ مرة أخرى بالبُعد، رغم أني أنزل يوميًا إلى بيروت. لم أستطِعْ أن أحدّد السبب. فقط، توقف كل شيء. وعندما نظرتُ إلى ما كتبتُه، وجدتُه مبعثرًا لا يمكن إعادة ترتيبه. شذرات لا تصلح رغم كثرتها. كنتُ أجلس في مكتبي بلا أي إنجاز، فيما تاكارا في بيروت تعيد بناء البيوت من الداخل. ظهرتْ لي مبسوطة. أسستْ لشبكة علاقات بشكل سريع منذ قدومنا للبلد. لم يكن يؤثر فيها أي حدث. حتى

الانفجارات المحسوبة، حتى الاغتيالات في التلفزيون. كان كل شيء متفرقًا لا يبني صورة متماسكة عندها.

من جديد، بدا لي أنها تلاحظ أزمتي. هذه المرة آثرتْ تركي تمامًا. في مرة، كنا نتحضر للنوم، اقتربتُ منها وحضنتُها من الخلف. سألتني:

- ماذا؟

نظرتُ إلى بؤبؤي عينيها المتسعين. فكرتُ في عائلتها في اليابان. اتسعَتْ ابتسامتي. كانتْ تنتظرني أن أتكلم، لكني اكتفيتُ بالابتسام. ثمّ بدا أنها تعبت من الانتظار، فأزاحتْني عنها بلطف، واتخذتْ وضعًا جانبيًا ونامت. عدتُ أنا حينها إلى الاستلقاء. نظرتُ إلى السقف، من دون أن أفعل شيئًا. قد يكون مرعشر دقائق قبل أن أعلن: تعالي نصنع طفلًا.

كانت نائمة، ولم تسمع.

في اليوم الثاني، انطلقتُ إلى بيروت. ركنتُ سيارتي في موقفٍ على أطراف وسط البلد، مشيتُ. هرولتُ. ركضتُ. كان جسدي، على غير عادة، ينفث عرقًا. توقفتُ بعد ساعة. جلستُ على مقعد حجريّ بالقرب من الروشة. حجَب سياحٌ الصخرة الشهيرة عني، لكنهم ما لبثوا أن عادوا مستقلين الباص. صخرة الروشة كانت قريبة، أقرب من المعتاد. كنت أفكر: ماذا الآن؟ إلى أين من هنا؟ أتينا من لندن إلى بيروت مستندين إلى نظريتي أن المكان هو السبب. فرّغتُ شذراً من أفكار فوضوية ولم أنجح أن أؤلف منها ولو حتى قصة قصيرة وحيدة. كل شيء يتوقف معي قبل أن يبدأ. كل شيء ينتهي نهاية

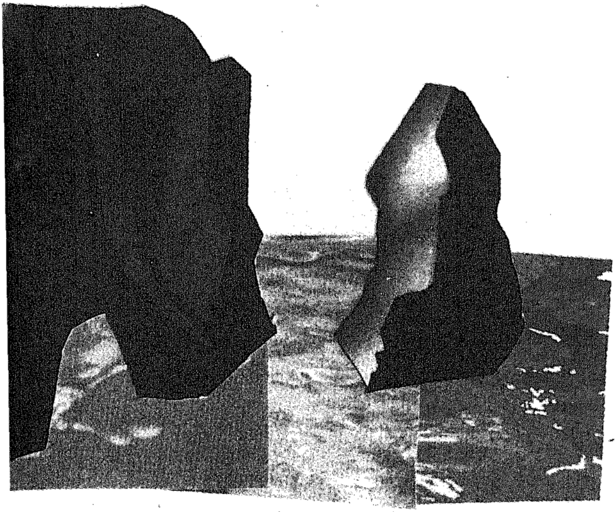

٦٠

مبكرة. ثم أخذتُ أسأل نفسي: هل حصل معي شيءٌ فعليٌّ يستأهِل أن يروَ؟ هل أملك قصة؟ وكيف لمن لا يملك قصة -بالحد الأدنى- أن يكتب رواية؟ أم هل أكون أملك قصة ولا أراها؟ وإن كنتُ أملك واحدة، كيف لي أن أعوّد نفسي على رؤيتها؟

اقترب مني مصورٌ عجوز. سألني إن كنتُ أود أن أتصور. لا أعرف ما الذي رسمه وجهي العرقان من تعبير، لكن المصور ظنه جوابًا إيجابيًا وجدتُه أمامي يطلب مني الابتسام ويهوّي الصورة المطبوعة بعد

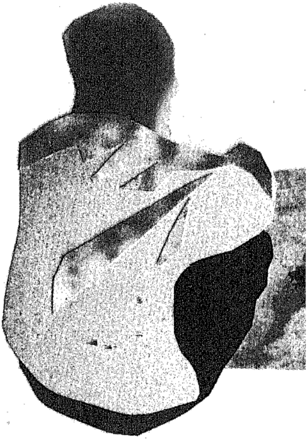

دقيقة ،ويدفع بها إليّ .نقدتُه ما كان في جيبي ، ولم أنتبه كم نقدتُه ، لكنه أخذ يتشكرني وهو يبتعد مناديًا بفرح: «صورة . . صورة . »

نظرْتُ إلى الصورة في يدي . رأيتُ نفسي غريبًا. كتفان متعبان ، وجه عرقان ، رجلان مضمومتان ، وابتسامة . . مهلًا . هل هذه ابتسامة؟

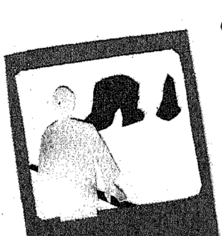

تذكرتُ أني لا أستطيع أن أبكي . تذكرتُ أني أجهد منذ أيام ، ولا أخرج أي دمعٍ من

مقلتيّ، وها أنا الآن لا أحظى حتى بابتسامة. لا الابتسام ولا الدمع. أين الخطأ؟ ما الذي أستمرُّ بتفويته؟

عدتُ إلى البيت واعتزلتُ في غرفة المكتب. نمتُ أسبوعًا على الكنبة الصغيرة. لم تقربْني تاكارا. كنت أسمع الباب يُفتَح ويُغلَق في الصباحات. أعطتْني مساحتي الخاصة كعادتها. وبقدر ما قدّرت لها ذلك، بقدر ما كنت أتمنى منها أن تتدخل. كنت أغادر الغرفة للحمام، فأعود لأجد الطعام جاهزًا على المكتب من دون أن أراها.

نهاية الاسبوع، خرجتُ. طالتْ ذقني للمرة الأولى منذ زمن. لم ترَني تاكارا هكذا يومًا. عندما نظرَتْ إلي، بدا على وجهها الاشمئزاز. همهمَتْ بشيءٍ لم أفهمه، وخرجَتْ من المنزل. كانت المرة الأولى التي أسمعها فيها تهمهم على هذا النحو.

دخلتُ إلى الحمام، لأغسل وجهي. وجدتُ عينيَّ غائرتيْن، بهالتيْن سوداوين مخيفتيْن. رميتُ الماء على وجهي، وآثرتُ الإبقاء على ذقني. لم أشذبْها حتى. خلعتُ ملابسي على أرضية الحمام، وقفتُ تحت الدوش، وفتحتُ الماء الساخن حتى حده الاقصى. كانت المياه الساخنة تنهمر علي، لكني لم أكن أحس بحرارتها. للحظة فكّرتُ أن سخان المياه أصيب بعطل.

خرجتُ من الحمام عاريًا بعد أن انتبهتُ أني لم أدخِل معي بملابس داخلية جديدة. كانت ثيابي المرمية على الأرض قد تبللَتْ. قبل أن أتجه إلى غرفتي لألبس، توقفتُ في الممر. شيءٌ ما جرني إلى الغرفة

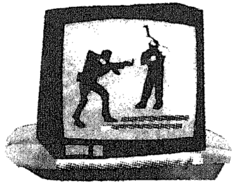

الزجاجية. اتجهتُ إلى هناك، عابرًا بالقرب من التلفاز الذي تركته تاكارا مضاءً قبل أن تخرج. كانت الشاشة تزدحم بالأخبار وبمذيعين متلهفين. بدا أن أمرًا جللًا قد حصل، لكني لم أرفع الصوت ولم أتوقف كثيرًا لأفهم.

من الغرفة الزجاجية، أخذتُ أنظر إلى التلال الخضراء تحتنا. فكرتُ في تحضير كوب من القهوة. دخلتُ إلى المطبخ، حضّرتُهُ وعدتُ. كنتُ أتحرك أوتوماتيكيًا، وكانت هذه المرة الأولى التي أمشي فيها عاريًا في المنزل. لم تمضِ دقائق كثيرة قبل أن أسمع طرقة الباب. التفتُّ، لتظهر تاكارا قبالتي باكية. نظرَتْ إلي، ثمّ طلبَتْ مني أن ألبس لنتكلم. قلتُ: لكن ألا يمكن أن نتحادث، وأنا هكذا؟ أجبتُها بالإنكليزية، وشعرْتُ بالارتياح، وبنسيم لطيف يلفح جسمي.

كانت دعابة في غير مكانها. انفجرَتْ تاكارا. لم أرَها هكذا يومًا. كنتُ أشهد تحولًا غريبًا أمامي. أخذَتْ تشتمني وتشتم البلد والناس، وتشتم نفسها. صرخَتْ باليابانية بجمل لم أعرفها. فهمتُ في تلك اللحظة لغتها من دون أن أتعلمها. كانت أمامي تتحول. قالت بالانكليزية: «لا أستطيع مواصلة فعل هذا. لا أستطيع.

حرصتُ ذلك اليوم أن أدَعَها تقول كل ما عندها، ثم ابتعدتُ عنها قليلًا. تركتُها أمام التلفاز تشاهد البث الحي للأحداث من بيروت، وتشتم باليابانية. بعد ملاحظي لارتفاع مستوى توترها، تقدّمتُ لأطفئ التلفاز. صرخَتْ فيّ أن لا أفعل. كانت تدخّن السجائر بشراهة،

وامتلأت أمامها المنفضة بكوم من أعقاب السجائر، فغادرتُ الغرفة ورحتُ لأنام على كنبتي الصغيرة.

غرقتُ في النوم حتى الظهيرة. صحوْتُ لأجد الخزانة القريبة مفتوحة. تفحّصتُ محتواها أكثر. بدا أن كثيرًا من ملابس تاكارا قد اختفَتْ.

كنتُ متيقنًا: لقد تركَتْ البلد.

تأكدتُ من ظني عندما تلقيتُ رسالة نصية منها قرابة العصر: أنا في طريقي لليابان عبر مطار دمشق. دخلتُ غرفة المكتب، وبقيتُ هناك أقرأ ما حاولتُ كتابته في الأيام السابقة. بدأتُ بمحو بعضه. كنتُ أفكر في كثير من الأشياء ما عداها. كتبتُ. كتبتُ. كتبتُ. لا أتذكر أني أفرغتُ هذا العدد من الكلمات يومًا. كنتُ أنقر على لوحة

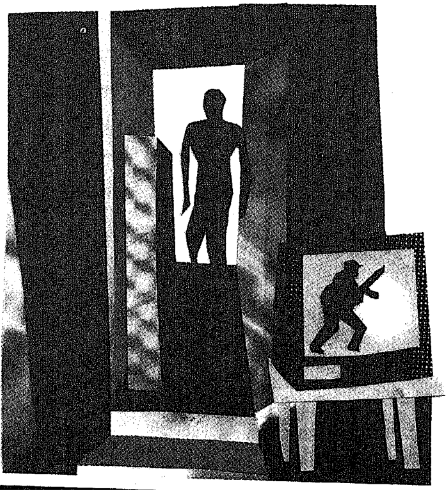

المفاتيح وأنا أجلس عاريًا تمامًا. لعلي وقتها بدأتُ أستسيغ المشي في البيت بلا ملابس.

هل هذه الرواية التي أنتظرها؟ أنهيتُ فصلين، وبدأتُ في ثالث. لم أنَمْ. شربتُ كثيرًا من القهوة كوبًا إثر الكوب. عند الثانية صباحًا، توقفتُ ونظرتُ إلى ما أنجزتُه. لفّتْني حالة من السعادة رغم الإنهاك.

عاريًا في عتمة الغرفة الزجاجية، شاهدتُ رقص الأنوار على التلال، وأخذتُ أفكر. من حوّل تاكارا إلى هذا الكائن؟ كيف لإنسان معروف بقدرته على ضبط الأمور، أن يترك الاشياء تنفلت من عقالها هكذا؟ هل هو اليقين أن المحاولات المستمرة ستبوء بالفشل؟ هل فشلَتْ تاكارا معي، وعرفَتْ أنها فشلتْ، فانفجرت؟ هل أنا الذي دفعتُها إلى هذه الحالة؟

ضربتْني أفكارٌ كثيرة. وأنا أتمشى في البيت، اصطدمْتُ في العتمة بأكثر من قطعة أثاث. كدتُ أتعثر بدرج، وأوقعتُ شيئًا فتكسر ورائي على الأرض. واصلتُ تقدمي نحو غرفتي غير آبه باحتمال أن يدخل نثار الحطام رجلي العاريتين. هالتْني فكرة أني لا أحفظ خريطة البيت

بالقدر اللازم رغم أن تاكارا لم تغير مطارح قطع الأثاث منذ انتقالنا.

في غرفتي، التقطتُ أول بنطال وقميص وقعَتْ عليهما يديّ. لم أنظر في المرآة. وجدتُني بعد دقائق في السيارة متوجهًا إلى بيروت. كانت الساعة قد بدأَتْ تشير للرابعة صباحًا. أخذتُ الطريق الساحلية. خيّم النوم على المناطق التي تخطيتُها كلها. قليلًا ما صادفتُ سيارة عابرة. وبدل أن أتجه إلى بيروت، حدْتُ بالسيارة ناحية الطريق الساحلي وقدتُ شمالًا حتى وصلتُ إلى منطقة الذوق.

انتابني إحساس أني مسيّر، أنّي أتقدّم إلى هدفٍ لا أعرفه ينتظرني في مكان ما. لكن شيئًا أمامي لم يكن خارجًا عن المألوف. أطبقَتْ علي فوضى الأفكار. صرتُ أفكّر بمشاهد من الفصل الرابع أو الخامس من روايتي، بخطوطٍ عليّ أن أعمل عليها أكثر، بشخصياتٍ عليّ إنضاجها. عندما وصلتُ إلى منطقة الذوق، كنتُ قد تركتُ روايتي، وركزّتُ باتجاه مختلف تمامًا: تاكارا.

كانت المرة الأولى التي تخطر لي منذ بداية انهماكي في الكتابة. رأيتُها على الزجاج الأمامي للسيارة. أمطرَت عليها السماء برفق. كان غريبًا أن تمطر في أيار. أدرتُ المسّاحات، لكنّ الصورة لم تختفِ من أمامي. ازدادتْ تاكارا حضوراً بعينيها السوداوين الضيقتيْن، وشعرها المالس، وأخذت تنظر إلي بغضب. لم أكن قد استعدتُ بعد الصورة المعهودة الهادئة لها.

كيف يستطيع أشخاص أن يتركوا هكذا صورة أخيرة لهم،

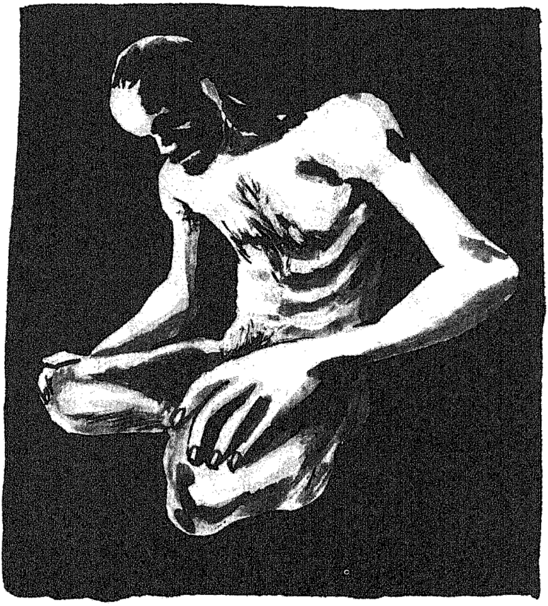

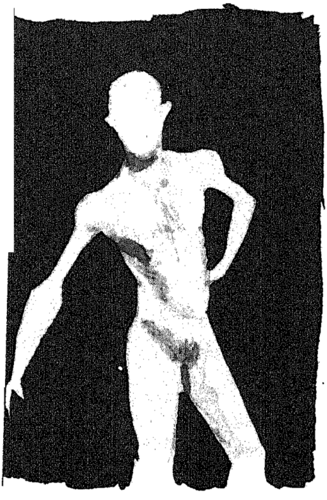

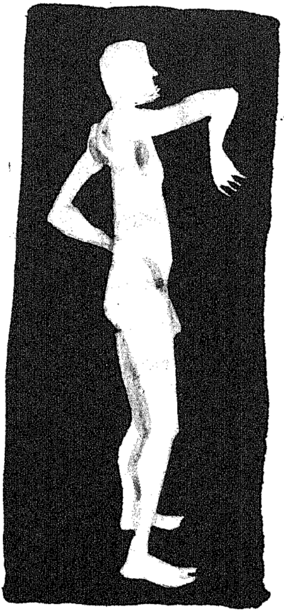

تمسح كل ما سبق، ويرحلوا؟ تساءلْتُ. هذا منافٍ للمنطق. هذا يثبت أن الأشياء أضعف مما قد تبدو عليه. لكن مهلًا، هل أتحدث هنا عن الأشياء أم عن العلاقات بين الأشياء؟ ولماذا يصبح كل شيء عندي (الأشياء البسيطة وعلاقاتها المعقدة) فجأة متصلًا كعجينة واحدة؟

هل يهزم التعقيد البساطة؟

لا أعرف ما الذي دفعني للإلتفاف والعودة باتجاه بيروت. كانت الساعة قد تخطّت الرابعة بدقائق. استعدْتُ كلام تاكارا الياباني الذي لم أفهمه. ترجمتُه بالصورة أمامي، بأدق تعبير وجهي أو جسماني لاحظتُه عليها في المواجهة. هل كانت مواجهة أصلًا؟ كنتُ ضعيفًا، وأتَتْ هي وفرّغَتْ كل شيء دفعة واحدة، لكن هل ألومها؟ هل يُلام من يُعزَل على تصرفاته؟

٧٠ شعرتُ بالذنب. بتُّ أكيدًا أنها ضحيتي. أنني أنا من أوصلتُها إلى الإنفجار. في أول شارع الحمرا الخالي من أي أثر للحياة، سمعتُ صوت حجر الشارع يرتطم بدواليب سيارتي. دخلْتُ شارعًا داخليًا وخرجْتُ منه. لم أعد أتذكر الطريق. كل ما أذكره أني كنتُ قد عدتُ إلى الشارع الرئيسي مجددًا، وهناك توقفْتُ. كانت تاكارا قد بدأت تصرخ أمامي. أشارتْ لي إلى الأمام. فكرتُ لو أني قدتُ أسرع لربما رميتُ صورتها من على الزجاج. لربما تركتُها على بلاط الرصيف فوق إحدى النجمات الذهبية المحفورة.

ولربما اختفَتْ نهائيًا.

طرتُ.

أخذ ارتطام الدواليب بحجر الطريق يُحدث صوتًا أكثر علوًا. بلغ الضجيج منتهاه، وواصلتْ تاكارا زعيقها الياباني، ثمّ.. ظَهَر أمامي.

وقف الرجل في الثياب الداكنة مصوبًا السلاح باتجاه شاب. كان بإمكاني تلافيه، لكن شيئًا ما داخلي كان يقنعني أن هذا لا يجب أن يحدث، وأنه هو نفسُه ينتظرني منذ زمن. أحسستُ بالأدرنالين يضرب عروقي، واستيقظتُ من نعاس كان بدأ يطبق علي على الطريق الساحلية.

حدث الأمر في ثوانٍ.

xxx

٧٢

تستغرق الأشياء لتحدث وقتًا أقصر بكثير من المدة التي نقضيها في التحضير لها على الأرض، على الورق أو حتى في رؤوسنا. الأشياء التي ننتظرها، تفاجئنا عادةً بخفتها عند حصولها. نسأل نفسنا، هل هذا ما كنا ننتظره؟ هل هذا ما كنا نخطط له؟ يأتي ثقل الأسئلة ليمحو خفة الحدث. أنا عندما اقتحمت المسلّح بسيارتي، لم أكن قد وصلتُ إلى الثقل الذي يتبع الحدث. أسئلتي عني وعن تاكارا اختفَتْ في لحظة. كنتُ في الخفة، تخترقني الأشياء، وعيني التي تحوّل كل شيء إلى

مضمون روائي، أعمَلتْ إبطاءً في الحدث.

يمكنني أن أذكر ما حصل بالترتيب الممل.

التصق الرجل أولًا بمقدمة السيارة. نظر إلى وجهي. كانت عيناه الغائرتان تقنص عينيّ. اصطبغ وجهه بالدم، وسال دم أيضًا من فمه المفتوح. ثم طرش السائل الأحمر الزجاج حاجبًا عني الرؤية. التصق الرجل بالزجاج، كأنه يعانق السيارة ولا يود تركها. أخذتُه معي. كنتُ أسوق بدون أن أرى الطريق بعده، وساعدني في ذلك أن الشارع لا يلتوي. ثم فكرتُ أني يجب أن أرى. ضغطتُ بقدمي اليمنى على الفرامل فجأة، فطار الرجل وحطَّ على مقربة في وسط الشارع.

فتحتُ بابي وخرجتُ. وقفتُ أنظر من مكاني إلى الرجل متكومًا على الأسفلت لا يتحرك. نظرتُ إلى الوراء مفتشاً عن الفتى الذي كان السلاح مصوَّبًا باتجاهه. لم أجد أحدًا. تفحصتُ الشارع. كان هادئًا وفارغًا من الحياة. استغربتُ أن لا يتواجد أحد في الشارع مع قرب شروق الشمس، وأعليتُ من نظري. وجدتُ السماء ملبدة، ثم لم تلبث أن أمطرَتْ في عيني. كأن السماء كانت تنتظر أن أنظر إليها. هذه المرة كانت تفرغ حمولتها بعنف بعكس رذاذ الأوتوستراد. أسرعتُ صاعدًا إلى سيارتي من دون أن أتقدم لأتفحّص حالة الرجل. قدتُ في طريق فرعية محاذرًا أن أمر قرب الجثة. سقتُ أولًا ببطء شديد من دون أي إحساس بالخوف أو بحاجة للهروب. كنت أشبه بزومبي حصل على وجبته، وتابع مشيه كأنه لم يفعل شيء، أو كأن

ما فعله طبيعي بالغاية، أو كأن ما فعله كان يجدر به فعله.

غسلَ المطر الزجاج تمامًا، وكنتُ أنا قد أدرتُ المساحات من جديد. هذه المرة، لم تظهر لي تاكارا. اكتفيتُ برؤية الدماء تختفي تحت غطاء المحرك. رأيتُ برقًا وسمعتُ رعدًا. لو كنتُ أفكر بطريقة طبيعية في تلك اللحظات، لاستعدتُ كل التفاصيل الرخيصة التي تصاحب إرتكاب الإثم في الأعمال الإبداعية التي تحرص أن تقدّم رسالة مباشرة جدًا: تبرق. ترعد. تمطر. يركض مرتكب الإثم. يختبئ، ثم يواصل هروبه. عندما يحظى بمكان آمن، يبكي. أو يضربه سوط التفكير.

لكني، على العكس من كل هذا، كنت أقود ببطء شديد، متجهًا نحو الكورنيش. وفيما عدى التفاصيل الطبيعية الخارجة عن إرادتي، لم أفعل أي مما قد يبدو منطقيًا في حالات كهذه.

كنت حتى أفتقد ثقل ما بعد الحدث.

بدأتُ أرى سيارات حولي. تجمّع مسلحون آخرون على النواصي يحتمون بستائر المحلات من المطر ويدخنون سجائر صباحية. لم يمضِ وقت طويل قبل أن أصل إلى الروشة. كان المطر قد خف وأخذ يتحول رذاذ. أوقفتُ السيارة وخرجتُ. نظرتُ إلى الزجاج. لم أجدْ أي أثر لا لدم ولا لخدش، فقط انبعاج خفيف في مقدمة السيارة لا يعني لمن يلاحظه شيئًا.

– معك سيجارة؟

طلبتُ من أحد الواقفين القلّة على رصيف الكورنيش. أعطاني واحدة وضعتُها في فمي. أخرج لي ولاعة وضمَمْنا كفينا نحاول عزل الشعلة عن هواء البحر حتى نجحنا. قال لي كزميل في أخوية سرّية:

– هالصباح صباح حلو.

للمرة الأولى منذ زمن أحسست أن عليّ الكلام. رددْتُ عليه: يسعد صباحك، وأشحْتُ له بيدي شاكرًا واتجهتُ إلى الدرابزين. استندتُ هناك، وأخذتُ أنظر إلى البحر الهائج.

كانت الصخرة هذه المرة بعيدة. بعيدة جدًا.

انتظرْتُ لفترة طويلة بلا خوف، لكنّ المصوّر لم يظهر هذه المرة.

في المنزل، عند عودتي، سأتفقد جواز سفري، فأجد أن الفيزا اليابانية لا زالت صالحة.

عند الحدود السورية اللبنانية سأبتسم لعسكري الحدود، فيختم جوازي، فأضيّفه علبة مالبورو أحمر. ٧٧

في الطائرة المتجهة من دمشق إلى طوكيو سأنام معظم الرحلة.

سيأتيني صديقي غالي في الحلم ويعيد علي جملته: «كل شيء مزيان آصحيبي». سأرى قطارًا يخترقني. سأشم روائح. كل رائحة تطغى على أخرى. سأرى وشمًا يابانيًا غريبًا على صدر رجل، وأقدّر في الحلم أني لا أعرفه. سيزورني كل الكتاب الذين أحب أن أقرأ لهم، ويبقى القطار يخترقني، لكنني لن أشعر بانقطاع النفس. سأحس أني مستلَب.

فقط عندما ستضع المضيفة يدها على كتفي، هامسةً لي أننا وصلنا، سأصحو. في مطار طوكيو، سأتصل بتاكارا من هاتف عام. لن أقول الكثير في السماعة. سأنتظرها في صالة الوصول، وتمر ساعة قبل أن تظهر. ستقف أولًا، ثم تركض نحوي وتعانقني، وأسمعها تبكي، وكالعادة لن أستطيع أن أذرف دمعة واحدة.

في السرير، سأعانقها. سأطلب منها أن نصنع طفلًا. ستسمعني، وتبتسم، ثمّ تشترط أن نسميه اسمًا يابانيًا فأومئ موافقًا، وأقبّلها. ونحن نصنع الطفل، لن أرى وجه تاكارا. ستطغى على رؤيتي القطارات المسرعة للمرة الأولى منذ زمن، فأشارف على الاختناق من جديد. لكنّي لن أُظهِر اختناقي لها. سأبكي للمرة الأولى، وأنا أحاول كتم اختناقي، وأحصل على مشهدي الرخيص الذي أعملْتُ فيه تأجيلًا.

ستسألني تاكارا إن كان بي شيء، فأجيب بالنفي، وأتمالك نفسي، وأواصل فعل الحب.

لكنّ بقعة الدم ستبقى تكبر في رأسي، فأراه. أرى عينيه من جديد، وأفكر فيه. أعرّفُه: هو قصتي الأولى التي تحدث لي. ستخور قواي وأنا آتي في رحم تاكارا.

قبل أن أغمض عينيّ، أتذكر أني نسيت اللابتوب، وعليه الفصول الأولى من روايتي في بيت المنصورية. وبدل أن أفكر إن كنتُ ساعود إلى هناك، أو في طريقة أستعيد بها الجهاز، أجدني مسكوناً بسؤال غريب: أي ولد صنعنا للتو، وأنا لا أتوقف عن التفكير بالرجل الذي قتلتُه؟

لن أجد جوابًا لإجابتي. على الأقل ليس قبل تسعة أشهر. الآن، أغمض عينيّ، وأحظى بالقليل من العتمة، والكثير من الأحلام الغريبة.

رسمت الفصل التالي: جنى طرابلسي

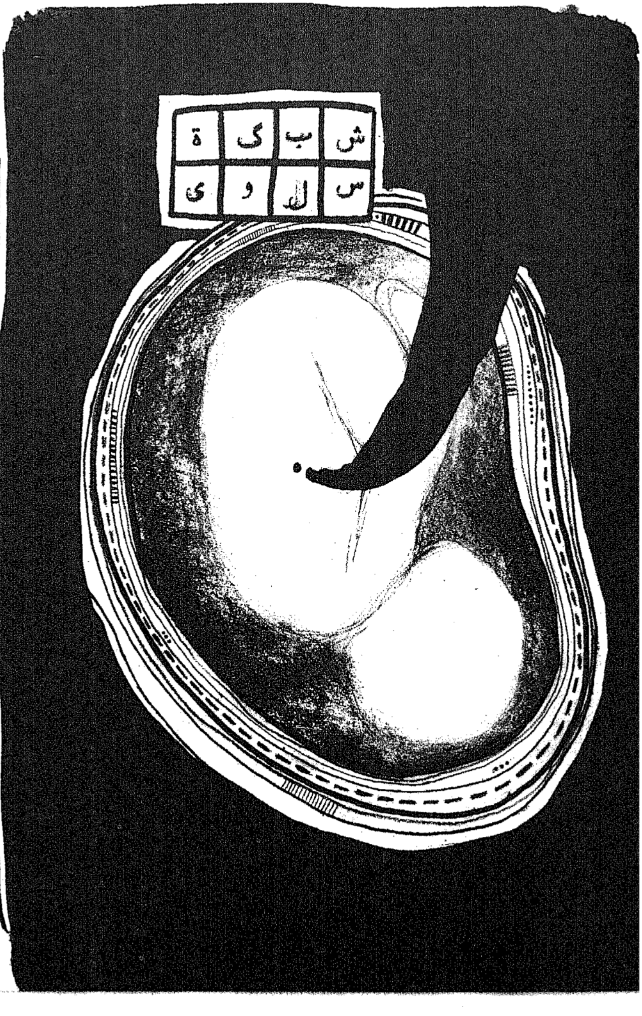
ش ب ک ة
س ل و ی

لم يمنع الإنهاك سلوى أن تترجل من السيارة. لمحت المجلات وهي تنظر من نافذتها. فورًا، طلبت من سائقها التوقف.

قال لها أبو جرجي:

– يا مدام، ما فينا نوقّف هون.

من دون أن يدري كيف، وجد أبو جرجي نفسه أمام زاروب لا تدخله سيارات كثيرة، فطلبت منه سلوى أن يوقف السيارة عند فم الزاروب.

– وقف هون، وضوّي الفلاشِر. أنا راجعة.

عبثًا حاول السائق العجوز إفهامها أنه لا يستطيع إيقاف السيارة هنا، وأنه إذا فعل ذلك، فسيغرَّم. كان جواب المدام:

– إذا قرّب الشرطي، كمِّل طريقك. لفّ وارجاع، مش رح طوّل، أنا واقفة عند كيوسك الجرايد.

نزلت سلوى ومشت من دون أن تنظر وراءها. هذه هي المرة الأولى هذا الأسبوع التي تقدر فيها أن تترجل من السيارة الرباعيّة الدفع

العالية من دون أن تشعر بالألم. بطنها كان خفيفًا، ورجل الصغير لم تخبطها عند الوقوف. وقفت عند ناصية الطريق. لم يكن الشارع مزدحمًا، وصعّب ذلك من سهولة قطعها للطريق. كانت تمسك أسفل بطنها بيمناها وتشير بيسراها للسيارات أن تتوقّف. اكتشفت أنها تقوم بحركة اليد أسفل البطن، منذ الشهر السادس لحملها. لا تعرف لماذا. للآخرين، تبدو كأنها تهدّي طفلها من الانزلاق خارجها، كأنها تبقيه فيها.

أخيرًا توقّف لها سائق سرفيس بيضاء عجوز. أشار لها برأسه أن تمر. لم تكد سلوى تعبر أمام السيارة البيضاء، حتى مرّت سيارة أخرى مسرعة، كادت تأخذها في طريقها. داس السائق على المكابح. كانت سلوى تكاد تصل إلى الجانب الآخر من الطريق، لكن ذلك لم يمنع السيارة من أن تلمس جنبها وتوقعها عند حافة الرصيف. حصل ذلك في لمحة بصر. حتى إن أبو جرجي لم ينتبه لما حدث إلا بعدما سمع الجلبة في الشارع، فأطل برأسه ليجد الناس متجمهرة.

عندما اقترب أبو جرجي راكضًا من التجمّع، وجد المدام مطروحة أرضًا من دون أن تفقد الوعي. كأنها وقعت وهي واقفة. عيناها مفتوحتان من دون أن ترمشا، ويدها ما زالت في الموضع نفسه من البطن. كان الناس يسألونها أن لا تتحرك ويستفهمون فيما لو كانت تشعر بوجَع. وقفت امرأتان خمسينيتان تنظران إليها عند القدميْن، وتتفقدان الأرض تحتها. كانتا تتأكدان أن لا سائل خرج منها.

سلوى لم تكن ترى في تلك اللحظة إلا السماء، زرقاء صافيةً بلا غيم. لم تلمح وجوه المتجمهرين حولها. تحولت الأصوات مضغوطة لثوانٍ قبل أن يظهر فوقها وجه أبو جرجي وهو يتكلم مع أحدهم على التلفون. رأت أيضًا رجلًا ملتاعًا لم تتعرّف عليه. لو ركزت قليلًا وهي تعبر الطريق، لعرفت أن الوجه الملتاع يعود للسائق الذي صدمها.

كانت لحظات قليلة من الوعي تبعها صفاء جديد، كان هذه المرة أسود.

***

٨٦ كلمات متلاحقة: للإجابة على التحديدات التالية إبدأ من السهم وسر باتجاه دوران عقارب الساعة

من أين بدأت أفكار سلوى عندما عاد إليها الوعي؟ كانت لا تستطيع الوصول إلى البداية. تحاول في رأسها وتفشل. كلما قرّرت أنّ هذه هي الكلمة التي ستبدأ منها، هجمت عليها كلمات أخرى كثيرة. لم تكن تستطيع أن تشطب أيًا من الاحتمالات. تفجّر كل شيء وسبح في رأسها وأمام عينيها، وهم يمشون بها. في البدء،

كانت تشعر بالاتجاهات: يمين ، يسار ، إلى الأمام ، توقف ، مصعد ، باب يُفتَح . صارعت حتى تُبقي على تركيزها ، لكنها فقدت قدرتها بعد دقائق . ورغم أنها كانت متأكدة من عدم خطورة إصابتها ، تملكها إعياء شديد . لعله إعياء الأشهر التسعة؟ لعله إعياء أمّها وزوجها وعائلتها وكل ما لم تعرفه أمّها عنها؟ كان تعبها كالموج ، يروح ويجيء فتشعر أنها تفقد منها أو يترك أحدهم فيها شيئًا كلما استيقظت .

لا تعرف المدّة التي قضتها على هذا النحو . عندما فتحت عينيها مرّة أخرى ، وجدت نفسها قبالة البياض ، ركّزت قليلًا وحرّكت نظرها درجات إلى اليمين لتجد ضوءًا أبيض مسلّطًا فوقها . كانت تنظر إلى سقف غرفة مستشفى . تأكّدت من حدسها هذا عندما لمست بيدها اليسرى ذراع السرير . رفعت كفّها اليُسرى بصعوبة لتجد مَصْلًا مثبتًا فيها . انتبهت أنها تشعر بنفسها خفيفة فانتقلت بنظرها مباشرة إلى بطنها . كان بطنها لا يزال كبيرًا كبر بطن امرأة حامل . مدّت يديها الاثنتين تحت اللحاف وتحسّست البطن . كان منتفخًا كما العادة لكنها كانت تريد معرفة أكثر . لمسته كلّه . بحثت عن الطفل داخلها حتى وجدَتْه . لا تعرف كيف تصف ما شعرت به يداها ، لكنها كانت تعرف أنه قابع هناك . كادت أن تبتسم ، لكنها لاحظت أنها لم تشعر بأي حركة . أخذت تمشي بيديها على بطنها المتكوّر لعل الصبيّ يلبطها . كانت تُقنع نفسها كلما فعلت ذلك أن الصبي يتدغدغ . هذه المرة ، لم تسمع شيئًا . وبدون سيطرة منها ، بكت .

– الولد منيح .

سمعت سلوى صوت أمّها . حاولت أن ترفع رأسها لكن السرير لم يكن في وضعية تسمح لها برؤية كل من وما في الغرفة . لم تمض ثوانٍ قبل أن يظهر وجه أمّها فوقها . أعطتها محرمة ورقية لتسمح دموعها من دون أن تبدي أيّ تأثّر ، وأضافت:

– الدكتور قال كل شي منيح ، وما تخافي اذا حسيتي إنو الولد مش عم يتحرك .

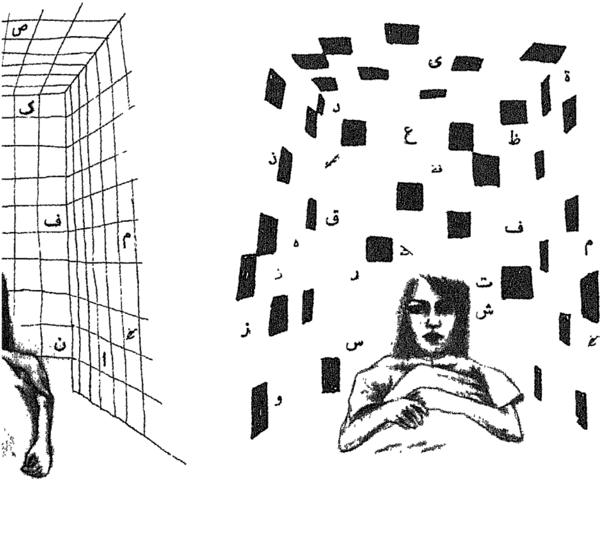

وقفت الأمّ كأنّها تستعدّ للمغادرة، لكنّها بدل ذلك بدأت عظتها المعتادة. أومأت سلوى بوجهها إيجابًا. لم تكن موافقة بقدر ما كانت تحاول اختصار الحديث، مع أنّها تعرف أن أمّها لن تتوقّف عن الكلام حتى تدلي كل ما عندها من آراء، وتعليمات، وخطوات. وهكذا.. تركتها تستفيض. سمعت تأنيبًا لها، وأسئلة عن أسباب مغادرتها المنزل، وتوعدًا لأبو جرجي الذي خالف التعليمات، وحمدًا لله مكررةً أن زوجها خارج البلد، وطلبًا، بل تهديدًا، أن تذهب لتصالح

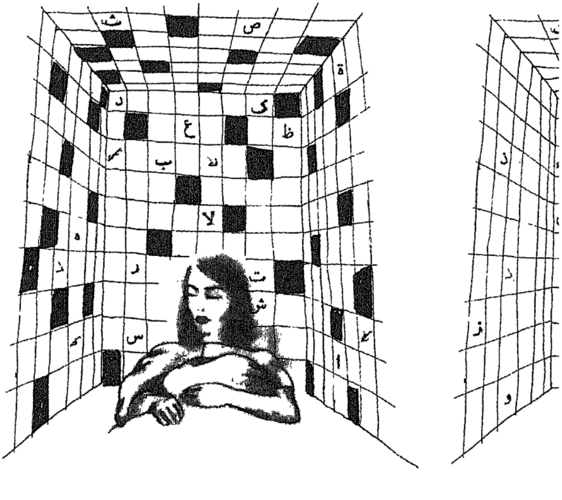

أهل زوجها حالما تتحسّن صحتها.

- مش رح قول لأهل جوزك. الحكيم قال يومين وبترجعي عالبيت. هيك هيك أصلًا هني مش عم يطلّو عليكي. أبو جرجي مش رح يفتح تمّو. وبالبيت رح قلّهن انك جيتي تقعدي عندي يومين. اشكري ربك إنو جوزك مسافر.

سلوى لم تكن تركّز في الكلام. كانت تنظر إلى البعيد، وتستعيد ما أوصلها إلى هنا. تذكّرت «كيوسك» الجرائد وما رأت فيه. تشظّى كلّ شيء. حوّلت كلام أمّها كلمات مبعثرة في خانات بأسهم. كلما ذكرت أمّها كلمة معتادة، «جوزك» مثلًا، حملتها بناظريها ووضعتها في الخانة المخصصة، ثم أعادت شطبها من موقعها الأول. كانت تلعب بالشاشة التي خلقتها أمامها بنفسها لتهرب من نقّ أمّها.

 ظلّت تفعل ذلك، حتى سمعتا طرقًا على الباب. وقف أبو جرجي عند الباب. لم تنتظر الأم طويلًا قبل أن تقذف العجوز بتأنيب آخر:

- شو عم تعمل هون؟ ما قلتلك خليك بالسيارة؟
- جايي اتطمن عالمدام.
- تتطمن؟ كنت فتح عينك مثلًا ونزِّلها حد الرصيف بدل ما تخليها تقطع الطريق.
- والله العظيم يا ست. . الشغلة صارت بسرعة.
- خَلَصْ، خَلَصْ. بلا كترة حكي. ارجاع ع السيارة. بدك توصّلني بعد شوي.

قبل أن يلتفت الرجل مغادرًا ، نادته سلوى . مشى الرجل ناحيتها ، فأشارت له بوجهها وبيدها أن ينحني فوقها أكثر . أخذت تتمتم له بأشياء في أذنه ، وهو يهزّ رأسه تكرارًا . كان الحديث يجري تحت نظر الأمّ التي بدت أنها تستشيط غضبًا ، لكنها تجاهد أن لا تظهر ذلك . تعرف ابنتها . تعرف ابنتها تمامًا ، وتعرف قصدها من هذه الحركات . تهيّأ الرجل للرحيل وهو يقول: «تكرم عينك يا مدام» ، ثم غادر باتجاه الباب ، لكن أم سلوى عاجلته كما توقع بجملة تهديد جديدة:

– أبو جرجي . بعد حسابك ما خلص .

أومأ الرجل برأسه وغادر الغرفة . هنا ، كما توقّعت سلوى ، بدأت المرحلة الثانية من حملة التأنيب . هذه المرة عزلت نفسها تمامًا . لن تسمعها . لن تسمعها . ستمضي في لعبتها . ستنغمس أكثر فيها . ستنتقي شبكة أصعب وتبدأ بحلها أمام ناظريها .

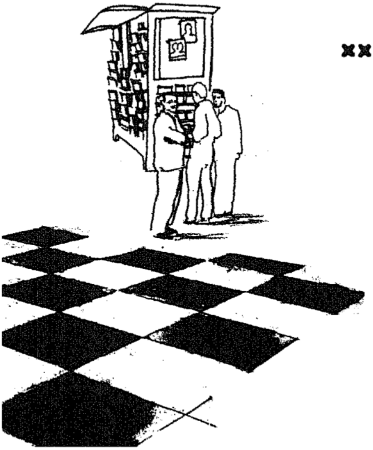

xxx

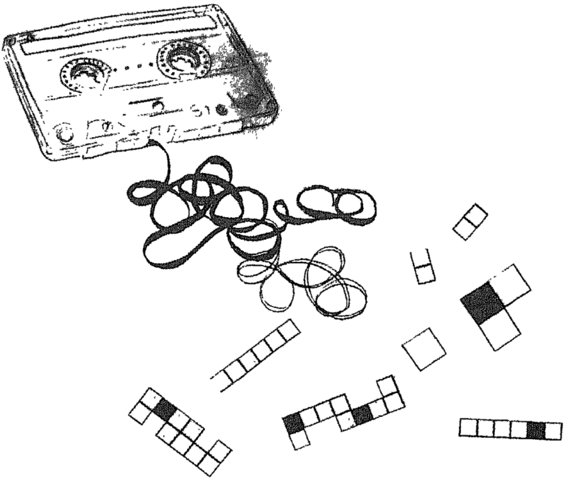

٩٢

كلمة من حرفين مرادفة للبحر.

أغنية لأم كلثوم من ستة أحرف من ألحان رياض السنباطي.

عندما رأت سلوى المجلات من داخل السيارة، انتبهت أنها قد تكون اكتشفت ما قد يعيد لها زمنًا ماضيًا ظنت أنه انتهى. لا يمكن أن تشرح اكتشافها لأمها أو حتى لأبي جرجي. أبو جرجي ينفذ فقط، وأمها تخالفها فقط.

أم ربما هي التي تخالف أمها؟

لكن ماذا لو سألها أحد آخر؟ كيف كانت لتجيب؟ ستحتاج الإجابة يومًا ما، مؤكد. حتى لو لم تحتاجها، ألا ينبغي عليها أن تشرح لنفسها على الأقل؟ من أين تبدأ إذًا؟ من كلمة بحرفين تعني البحر أم أنها ستنتهي هناك؟ أم من أغنية أم كلثوم؟ من أين تملأ الشبكة؟

ستحاول. ستقول أن هناك أشياء صغيرة. تفاصيل تبدو تافهة للبعض بالقدر الذي تبدو مهمة للبعض الآخر. وربما أكثر، قد تستفيض فتقارن هذه الأشياء بتلك الأغنيات التي تُشعِر سامعها بمتعة خاصة و تجعله يعتقد أنها تُغنّى له خصيصًا، أو تعيد له صوَرًا ولحظات، حتى تكاد تنقله للمطرح نفسه الذي شهد الأحداث الماضية. فيحصل على لهفته ذاتها، ابتسامته ذاتها، تعابير الوجه ذاتها. أحيانًا حتى، لا حدث يستعاد. أحيانًا، تُرتجَع تعابير الوجوه فقط.

كمستمع الأغنية، لا تفقه سلوى الكلام مباشرةً. تركّز في اللحن أولًا. اللحن كجوّ محيط. كشكل خارجي. كورَق هدايا. الأمر يشبه الإدمان. وَهِي إن أحبّت شيئًا أو شخصًا ذابت فيه حتى الهيام، إلى أن صار جزءًا أساسيًا منها، وبعدها، بعدها فقط، تنتبه فتقوم بالتحليل. ٩٣

سلوى هكذا. كلما رأت مجلة ألعاب، رجعت إلى بداية عشرينياتها في ثمانينيات القرن الماضي عندما كانت تجمع هذه المجلات. كانت تبتسم كلما رأت اسمها عنوانًا على إحداها: «سلوى». وقتها، لم تكن تلاحظ العنوان الفرعي الذي يسبق اسمها: «شبكة». كانت شديدة الأمانة لنظريتها الأثيرة التي تقول إنّ هذه المجلّة هي مجلّتها. مجلّتها

وحدها. ولمّا انتبهت لكلمة «شبكة»، أبت أن تهدّم نظريتها بل دعّمتها. قالت في رأسها: «هذه شبكتي. هذه الشبكات التي في الداخل هي شبكاتي». كان الاكتشاف بالنسبة لها محض تفصيل تافه.

أول من لاحظ اهتمامها بالكلمات المتقاطعة، كان والدها. كانت تخزق جزءًا من صفحة الجريدة التي تحوي قسم الألعاب، ولا ترفع رأسها عنها إلى أن تحل كل الشبكات. ثم كان الوالد يأتي دائمًا ليستعيد الصفحة منها، حتى إنّه أحيانًا كان ينتظرها إلى أن تنتهي الحل. فخلفية قسم الألعاب كانت تتضمن تتمة أخبار الصفحة الأولى، وأخبار الصفحة الأولى كانت تحوي الافتتاحية وموقف الجريدة الرسمي، وهو كان مواظبًا على تتمات محتوى الصفحات الأولى.

بعد ذلك بفترة، اهتدى الأب لمجلات الألعاب والتسلية. لا تنسى اليوم الذي دخل فيه المنزل حاملًا خمسة أعداد دفعة واحدة وناداها، وعندما حضرت قدمها لها قائلًا:

- جِبْتِلِّك سلوى يا سلوى.

هذه من اللحظات التي تعيد سلوى رسمها في ذاكرتها كلما أمسكت مجلّة من المجلاّت. كلما رفعت إحداها أمام ناظريها، جاء والدها ليسلمها الأعداد الخمسة. رفعة اليدين نفسها. الزمن نفسه. كأن الأمر حدث البارحة. كأنه أقفل الباب للتو وخرج، وسمعت صوت طرطقة نعل حذائه الأسود على الدرجات القليلة أمام مدخل الفيلاّ. كأنه عاد إليها ممسكًا بالجريدة ملفوفةً وشاتمًا المسلحين المنتشرين

في الشارع.

باختصار، صارت «شبكات سلوى» أرشيفها لتلك الفترة. لا تبالغ إن قالت إنّ هذه المجلاّت صارت هي الحرب بالنسبة لها! الشبكات التي ظلّت تصدر بتتابع رقمي مذهل لأعدادها على أغلفتها، والتي لم تكن تحْوي تاريخ صدور، اختفت بعد عام ١٩٩١ تمامًا من الأسواق. ما عاد أبو سلوى يحضرها.

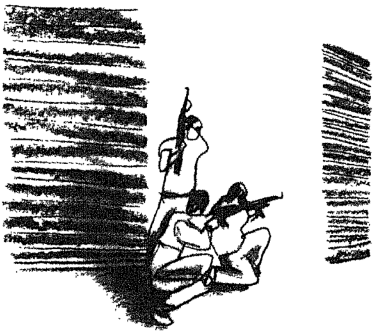

صار يشتري لابنته أعدادًا قديمة، لكن الابنة لا تحلّ شبكات قديمة. حتى إنها تملك الأعداد القديمة جميعها مؤرشفةً في درج خزانتها. لماذا تحل إذًا ما قد حلّته سابقًا؟

هل يُحلّ اللغز أكثر من مرّة؟

لم تفهم سلوى كيف لمجلاّت كانت تصدر في عزّ الحرب الأهلية أن تتوقّف عند اقتراب السلم. كيف لمن استمر في الإنتاج تحت أعتى الظروف الأمنية، وكان يجمع محرريه، ويخلق شبكات بكلمات مختلفة لم تتكرر يومًا في عددين، ويطبع المجلة، ويوزّعها، أن يتوقّف قبل انتهاء الحرب اللبنانية بفترة قصيرة؟ انقطع النفس؟

كانت تفتش عن إجابة، ولم تجدها، فلجأت كعادتها إلى ابتداع نظريّة تصدّقها هي وحدها. قالت إنّ الوقت الاستهلاكي لهذه المجلاّت انتهى مع اقتراب نهاية الحرب العسكرية، وإنّ أنماطًا أخرى من التسلية ستصير متاحة، وإنّ عمر المجلاّت هذه من عمر الحرب. كبرت معها، وستموت مع انتهاء المرحلة العسكرية منها. وعليه، لم تنجح هذه المجلّة في الحصول على هويّة جديدة تواكب المرحلة التالية، فكان طبيعيًا أن تتوقّف.

هكذا أقنعت سلوى نفسها.

في التسعينيات، ورغم توقّف صدور المجلاّت، بقيت الأعداد القديمة تطبَع، أو تُزوَّر. لا تعرف سلوى على وجه التحديد أيًّا من الاحتمالين أقرب للحقيقة، لكنها كانت متأكدة على الأقل أن الأعداد قديمة من صور الفنانين القديمة على الأغلفة ومن الرقم المدرَج في الزوايا اليسرى للمجلاّت، فهي تحفظ رقم العدد الأخير: ٤٥٨. ظلت ترى المجلاّت مطروحة للبيع على الأرصفة ومعلقة في أكياس نايلون في «كيوسكات» الجرائد المزروعة على أرصفة بيروت، ثم ما

لبثت أن اختفت كليًا. بقيت منها فقط تلك المتروكة على المناضد عند الحلاّقين، وفي صالات الانتظار عند الأطباء. كانت تجدها مصفّرة الورق، مخزوقة الأغلفة. تفتحها لتجد شبكات حاول كثيرون حلّها وفشلوا فتركوها بعد أن أضافوا حروفًا إلى خاناتها بأقلامهم البيك. لعل طباعتها ونوعية ورقها لم يجبرا كثرًا على احترامها، كانت تفكر. كانت تتفقّدها، وتتأكّد من قدمها بنظرة سريعة للصفحات الداخلية. هي تعرف الشبكات القديمة حالما تنظر إليها. هذه خبرة اكتسبتها على مرّ الأعوام.

لكن، ما الذي حصل لمّا رأت المجلاّت من نافذة السيارة؟ بماذا كانت تفكر وهي تعبر المسافة القليلة قبل حادث الاصطدام؟ بنت نظرية جديدة وصدّقتها؟ رأت الرملة البيضا؟ شافَت السيارات تتوقّف قرب الكورنيش، سمعت أم كلثوم تغنّي؟ مشت قدما والدها وهو يمسك بذراعها إلى البحر؟ التفتا إلى الوراء لترى دخانًا متصاعدًا وراءهما في شارع من شوارع بيروت؟

ماذا رأت سلوى؟

الإجابة الأولى: اليم.

الإجابة الثانية: ذكريات.

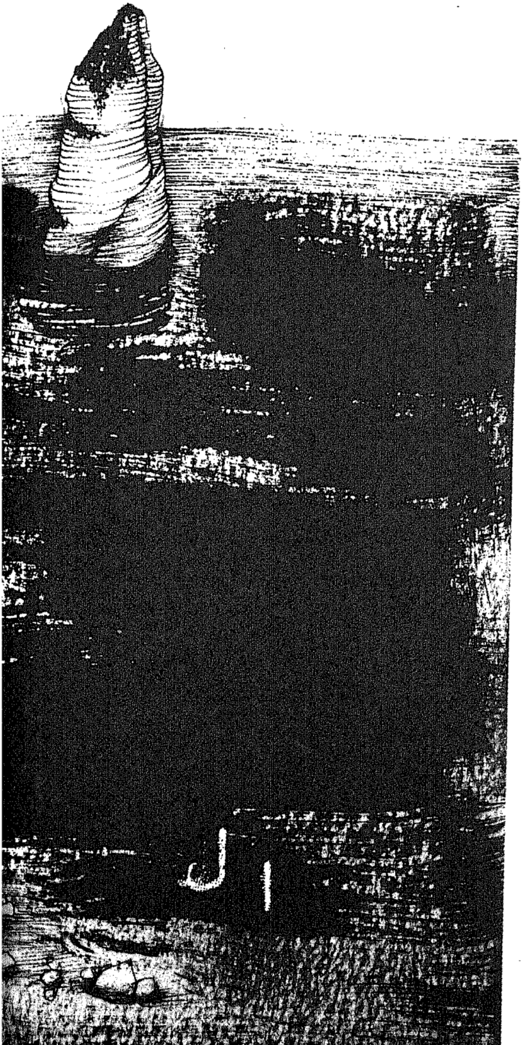
ال

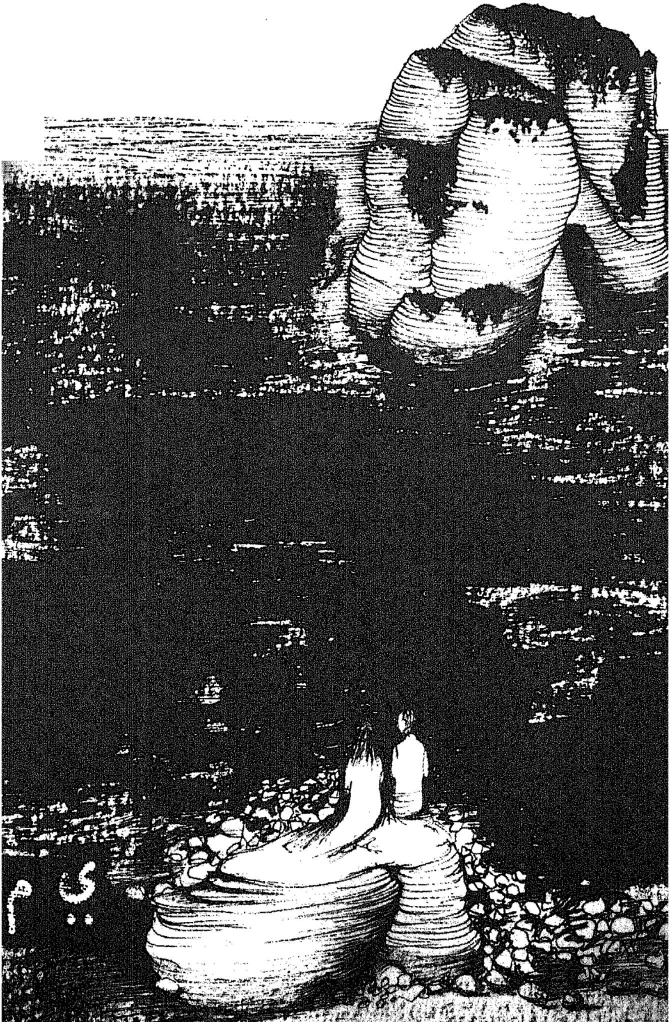
يم

لديك أحرف مبعثرة عليك ترتيبها لتحصل على كلمة ذات معنى

ذات يوم، صحت سلوى ودخلت الحمّام. بوّلت. أحسّت بحرقة. كانت تشعر بالتوتّر. تأخّرت دورتها الشهرية هذه المرّة. جالت في الفيلاّ الفارغة إلاّ من بعض الخدم. تفقّدت رسائلها الصوتية والنصية على خليويّها. لم تجد أيّ رسائل من زوجها. لم يكن الأمر يعنيها قبل ذلك، لكنها هذه المرّة كانت تحتاج أن تقرأ شيئًا منه. بل كانت تحتاج أن تقرأ شيئًا من أيّ أحد.

الأمر معقّد.

لا تكره زوجها. ربما كرهَتْه في البداية. ربما قبل البداية.

فلتعِد صياغة هذه الفكرة.

لم تكن مقتنعة. وصلت إلى الزواج بعد مراحل كثيرة تدرّجت من الرفض التام مدعومة من والدها، إلى التهكّم عندما تفتَح أمها السيرة، إلى التنازل لمقابلة العرسان ثم رفضهم، إلى مقابلة العريس أكثر من مرّة، إلى الانتقاء بين ثلاثة. .

رحيل والدها دفعها أكثر إلى التنازل. ضغط أمها عليها كان يزداد، وهي كانت تكبر، وأحوالهما المادية تسوء. لم يبقَ لهما إلا سمعة عائلة أمّها (هكذا كانت تقول الأمّ). أتى الأب من بيئة متوسّطة الحال بعكس زوجته التي كانت من عائلات الأشرفية المعروفة بثرائها.

وسلوى لم تكن تفهم كيف أن أمّها التي انتقت زوجها من خارج مجتمعها الصغير كانت تدفعها إلى الخيار الأكثر تقليدية. هل تغيّرت أمّها بعد رحيل والدها؟ لا. كانت هكذا قبل أن يرحل. لطالما حملت شخصيتها هذا النزق. هل العيشة المتواضعة التي بالكاد وفّرها والدها لهما هي التي فاقمت وضع الأمّ؟ ربما. لا تجد سلوى سببًا آخر لتعاظم هذا النزق. فتشت ولم تعثر على مبرّرات أخرى.

عندما أخبرتها أمّها للمرّة الأولى عن زوجها الحالي، قالت عنه: «من عيلة غنية ومعروفة، ما تضيّعيه من إيدك. أبوه بيشتغل سياسة كمان. شو بدك أحسن من هيك؟» حثّ هذا التعريف سلوى على رفض مسبَق للعريس. تجاربها مع عرسان أمّها لم تكن تبشّر بالخير. في ذلك الوقت، كانت قد وصلت إلى مرحلة مقابلة العرسان ومن ثم تطفيشهم، وعزمت أن تفعل الشيء نفسه مع المرشّح الجديد.

قالت لها أمّها إنّهما مدعوتان لغداء تعارف مع عائلة العريس وإنّ عليها تصفيف شعرها. أنزلتْها عند الكوافير وأعلمتْها أنها ستعود لتلتقطها ليذهبا معًا، لكن عليها أولًا أن تنهي أمرًا بالغ الضرورة.

عند المصفّف، جلست سلوى على الكرسي ونظرت إلى المرآة. رأت شعرها يرفَع ثم يلقَط ثم يمشَّط بطرق مختلفة ثم يصفَّف تصفيفًا كاملًا. رأت شكلها يتغيّر. استغرق الأمر ساعة، قبل أن تجهز، وتجلس على كراسي الانتظار الجلدية. اتّصلت بأمّها تسألها أين صارت. أجابتها أنّها آتية. مضى ربع ساعة قبل أن تسمع أحد عمّال الصالون

يناديها ويقول إنّ السيّارة المركونة أمام المحلّ تنتظرها. جمعت سلوى حاجياتها وخرجت.

رأت سيّارة أمّها بزجاجها الداكن مركونة صفًا ثانيًا في الخارج. انطلقت نحوها وفتحت الباب وصعدت.

لكن أمّها لم تكن في السيّارة. عوضًا عنها، وجدت شابًا بملابس رياضية. اعتذرت بخجل عن اللغط، وكادت أن تخرج لكن الشاب استدرك وهي تهمّ بالخروج، وناداها باسمها:

– سلوى. الماما باعتتني. هيّي عنّا.

ارتبكت سلوى. وأغلقت الباب. عرّفها عن نفسه. هل يكون هو، أم أنه فرد آخر من العائلة؟ لم يعنِ لها اسمه شيئًا. لم تُعلمها أمّها عن اسمه. ذكرت فقط اسم عائلته. أصلًا أمّها لم تكن مهتمّة باسمه. لم ترَه إلا ابن عائلة.

في الطريق أخذ الشاب يتكلّم. يقول إنّ الجميع ينتظر وإنّ مائدة الغداء قد تكون حضرت. اعتصمت سلوى بالصمت وهي تفكر: هل يكون هو؟

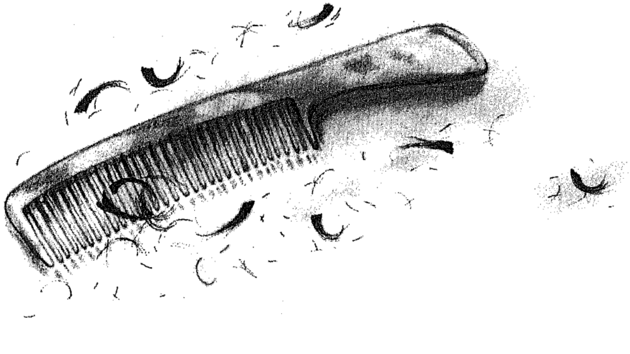

لكنه يبدو صغيرًا!
بعد دقائق من الكلام المتواصل قال الشاب مازحًا عندما لاحظ ارتباكها:
– عم ازعجك بحكيي؟
زاد ارتباك سلوى. أخذت تبدأ جملًا ولا تنهيها. ضحك الشاب، سألته لمَ يضحك. قال لها:
– ما في لزوم لكل هاللبَكة. مش رح نتجوز يعني!
ليس هو إذًا، استنتجَتْ في رأسها.
لكنه تابع كأنه يقرأ أفكارها:
– لا. ما تروح أفكارك لبعيد. أنا العريس. . بس مش رح نتجوّز.
لم تفهم سلوى، لكنها لم تسأله. شتم سيّارة أمامه، اعتذر منها ثم تابع ضحكه، ثم تكلّم على الخليوي مع أحدهم وواصل قهقهته. كان الشاب مغرقًا في عفويته.
سلوى. لم. تفهم.
عندما وصلت إلى الغداء تقدّمت أمّها لتشكر الشاب على معروفه بأخذ ابنتها من عند الكوافير. ردّ الشاب أن لا مشكلة. ثم قامت الأم بإتباع شكرها بتعقيب غبي في مباشرته من هذه التعقيبات التي تقال في الزيجات المدبّرة:
– شو؟ حكيتو؟
ضحك الشاب والتفت إلى سلوى:
– بدِّك تسألي سلوى! شو سلوى؟ حكينا؟

ابتسمت سلوى وأومأت برأسها إيجابًا، وضحكت أمّها من قلبها قبل أن تعتذر من الشاب قائلةً إنّها ستقوم بتعريف ابنتها على بعض أفراد العائلة.

عند سلوى، في تلك اللحظات، كان كل شيء فوضويًا. لزمت الصمت إلا من قليل كلام اجتماعي مع أفراد العائلة، ثم قرّرت أن تدخل لتساعد الآخرين في تحضير المائدة، لكن أمّها و«حماتها» ما لبثتا أن ردّتاها إلى الخارج وقالتا إنّ هناك ما يكفي من الخدم لإتمام المهمّة.

أخذت سلوى تتجوّل في الفيلاّ التي أغرقت التحف والتماثيل زواياها. وقفت وراء زجاج الأبواب الملوّن تنظر إليه في الحديقة وهو يشرب كأس نبيذ أحمر ويتحدّث مع شاب آخر، ويواصل ضحكه. سألتْ نفسها: ألا يتوقّف هذا الفتى عن الضحك أبدًا؟

صمّمت. عليها أن تفهم. لا يمكن أن تترك الشبكة غير مكتملة. وقفت قريبةً منه وطلبت من النادل عند البار كأسًا من النبيذ. عندما لاحظ هو وجودها، اعتذر من صديقه واقترب منها ثم طلب من النادل نفسه أن يصبّ نبيذًا أكثر في كأسه التي كادت تفرغ.

وهو ينتظر شرابه، سألها:

– شو؟ جايي تحكي معي؟

– هَهْ؟

– شفتِك جايي من هونيك لهون.

– عشان النبيذ!

برَّرت قدومها وهي ترفع كأسها.

– يعني ما بدِك تحكي معي؟

نظرت سلوى إليه وقالت:

– عدا إنّك زنخ.. مش فهمانة.

ضحك، فاتخذت جملة سلوى التالية نبرة أكثر حدّة.

– ممكن توقّف ضحك، وتفهِّمني.

تغيّرت تعابير الشاب إلى الحياد مع ملاحظته لحدّة نبرة سلوى. فَرَدَ ساعده طالبًا لها بأن تأتي معه. ظلّت سلوى متخشبّة عند تعابير وجهها النزقة (هل كانت تبدو مثل أمها في تلك اللحظة؟ عبر الخاطر رأسها سريعًا). عندما رآها جليديّة هكذا، أضاف محافظًا على ساعده المفتوح:

– بعتذر. خليني إشرحلك. تفضلي.

ذهبت سلوى معه، وشرح لها كل شيء.

xxx

أثر سياحي شهير يقع على شاطئ بيروت

كان الشاب غريبًا . لا يريد الزواج ، ويقوم فقط بالدور المطلوب منه . تمامًا مثلها . قال إنّ مشكلته تكمن في كونه الابن الوحيد لوالديه ، وهذا يضعه تحت ضغط مضاعف . «ما تحكيني عن الضغط» ، ردّت عليه سلوى .

صارا زوجًا مثاليًا يتلاعب بأعصاب العائلتين . اعتادا أن يلتقيا على فترات قريبة ، مع مجموعة أصدقاء من دون علم عائلتيهما ، وبقيت أم سلوى تنتظر اتّصالاً هاتفيًا من عائلته لم يأتِ . كان كل شيء يبشر بصداقة قد تطول ، ولا شيء أكثر . لم يكن الشاب يقوم بخطوات «أجرأ» . كان مرحًا كأيّ شاب في بداية عشرينياته ، غير أنه كان يبلغ من العمر سبعة وثلاثين! عندما عرفت سلوى عمره الحقيقي ، صعقَتْ . اتهمته بالكذب . أخرج لها بطاقة الهوية وقال: «كله من الرياضة! أنا بسبح كل يوم ، حتى بالشتي! بره ، جوه . . » . أضاف ضاحكًا: «وين ما كان . . بسبح!»

استمرّ الأمر على هذا النحو أكثر من شهرين عادت فيهما أم سلوى إلى نزقها المعتاد . اتّهمت ابنتها بأقذع الاتهامات التي امتهنتها مع هرب كل عريس . لكن سلوى لم تكن تهتمّ ولم تكن تسمع .

بعد شهرين آخرين ، خرجت معه وأصدقاء آخرين إلى نادٍ ليلي

في شارع السوديكو. تركها كعادته عند البار وذهب ليلتقيَ آخرين. اقترب منها أكثر من رجل ليحدّثها. كانت تعتذر. لا تعرف لماذا. كانت تتابعه فقط بنظراتها. تلك الليلة، لم يكن يضحك. كان يشرب كثيرًا ويبدل الكؤوس بسرعة غير معتادة. أكثر من المعتاد.

بدا أنه ينتقم من شيء ما.

لم تمض ساعتان قبل أن يبدو عليه الإعياء الشديد. نهضت سلوى مع بعض أصدقائه وجذبوه من قلب الجمع. كان يعاندهم ويشتم المحيطين به علنًا. أخرجوه إلى الشارع. بقيت هي مع رفيقيْن آخرين معه. تقيّأ عند حافة الرصيف أمامهم. طلبت سلوى من صديقيه أن يعودا ليكملا سهرتهما. ستبقى معه وتوصله إلى المنزل، قالت. سألاها إن كانت متأكدة. أومأت إيجابًا.

ظل لدقائق عشر يُخرج ما في جوفه. ترنّح أكثر من مرة وهي ١٠٧
تُمسك به. لكنّها وجدتْه خفيفًا. أخف مما توقّعَت. عندما توقّف عن التقيؤ، حاولَتْ الاتجاه به إلى السيّارة. في البدء كانت رجلاه تعاندان، ثم ما لبثتا أن استجابتا لدفعها. في الطريق، ظلّ يكرّر اعتذاره لها كولد صغير. عندما وصلا، سألتْه عن المفاتيح، نظر إليها بعينين ناعستين ولم يردّ. طرحَتْه برفق على غطاء المحرك الأمامي، وفتشتْ في جيبيه الخلفيين فلم تجد إلاّ محفظة. أخرجتْها، وأخذتْ تبحث فيها. عثرت على بعض البطاقات المصرفية والتعريف والنقود. فتحتْ جيبًا داخليًا بزرّ لتجد فيه واقيًا ذكريًا. أغلقته ونظرت إليه وهو نصف واعٍ. ثم

لاحظت أن جيبًا آخر صغيرًا في مقدمة بنطاله ، تحسسته ، فوجدت المفتاح فيه .

فتحت بابَيْ السيّارة . نادتْه ، فلم يردّ . كان قد نام في هذه الأثناء على غطاء الموتور . شدّته من يديه مرّة أخرى وحاولت سنده . فتح عينيه نصف فتحة . قالت له: «بدنا نطلع بالسيارة» . قال لها: «إي . إي . أنا بْسوق» . تجاهلت تعليقه ، ووضعتْه في المقعد ثمّ أغلقتْ عليه الباب ، وصعدت هي من الباب الثاني ، وأدارت المحرّك . شغلت ساحب الهوا ، وانتظرت حتى يطير البخار من على الزجاج الأمامي وتتضح الرؤية ، وأخذت تنظر إليه متكوّمًا في المقعد غائبًا عن الوعي .

كان مختلفًا . لم يكن يضحك .

وصلت إلى مقربة من بيته . ما إن صارت هناك ، حتى انتبهت سلوى . تدخل به إلى بيت أهله وهي معه؟ وهو هكذا؟ لم تعرف ماذا تفعل . لم تكن تعرف شقة أخرى له .

أخذت تحدّق فيه حتى ثقل جفناها .

وناما في السيّارة .

بعد ساعات قليلة ، صحت سلوى على صوت تقيؤه . نظرت إلى ساعتها لتجدها الثامنة صباحًا . أمّها

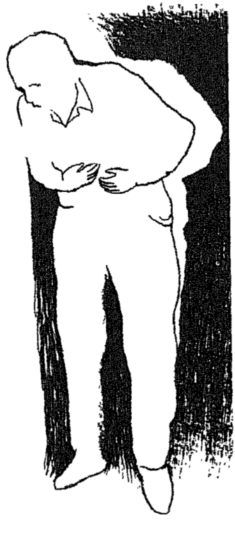

ستجنّ، تعرف. لكنها تستطيع أن تتعامل معها، لا مشكلة. خرجت من السيّارة. وجدتْه واقفًا مديرًا ظهره. انتظرته لدقائق قبل أن يعود إليها وهو يمسح فمه بمحرمة.

– أنا كتير متأسِّف.

لم تردّ سلوى. ساق بها بعد أن أكد لها أنه الآن بخير. عادا إلى كورنيش بيروت. ركن السيّارة للحظات عند مقهى «بيروت كافيه»، وترجّل منها على عكس عادة زبائن المحلّ. عاد بقهوة لكليهما وقنينة مياه وظرف «بانادول». وضع الكوب جنبه في المكان المخصص من التابلوه، وفتح القنينة، ثم أخرج حبتيْ «بانادول» من الظرف، وابتلعهما.

أوقف السيّارة بالقرب من رصيف الجهة البحريّة من الكورنيش، ودعاها لمرافقته. نزلا درج الصيادين بحذر. جلسا تحت، على الحافة الحجرية. كانت المرّة الأولى منذ زمن الذي تقترب فيه سلوى إلى هذا الحدّ من البحر. كانت فرحة من دون أن تبيِّن له. حتى إنّها لم تهتمّ لاحتمال اتّساخ فستان سهرتها في جلستها على الحجر. أحد الصيادين لحظ وجودهما. اقترب منهما وأعارهما كرسيين صغيرين. قال لهما: «صباح الخير يا عمّو»، وعاد إلى صنّارته.

بقيا هناك لدقائق يشربان ما في الكوبين. كان الهواء المحمّل برذاذ البحر يلفح وجهيهما. لم تتكلم سلوى، لكنها نظرت إليه أكثر من مرّة. بقي شاخصًا بعينيه إلى البحر. وهي تتابع حركاته بطرف عينها،

تذكّرت أباها. استعادت كلمة «اليمّ» من شبكات كلماتها المتقاطعة. لأول مرّة، عنت لها كلمة «اليمّ» أكثر من كلمة «بحر». لم تعد كلمة معروفة تستخدم في شبكة ألعاب. خرجت. طارت. صارت أكثر من ذاك. الحرفان والشدّة على الحرف الثاني في الكلمة جعلا الشيء بأكمله يتّضح أكثر. قالتها في رأسها: «يمّ». قالت في رأسها: هذه الكلمة الأصلية، لا «بحر». جزمت بذلك وهي تحدّق به وبالنوارس التي بلغهما صوتها الزاعق.

– أنا كتير متأسِّف.

اعتذر من جديد. لم تردّ سلوى أيضًا، ولم ينتظرها هو أن تجيب. عاد بنظره إلى الأمواج التي أخذت تعلو أكثر وترميهم برذاذ أكثر. بقي كذلك لدقائق قليلة أخرى، ثم التفت إليها. لم تعرف لِمَ حدّق بها هكذا. كادت أن تسأله، لكنها سبقها:

– بْتِتْجوزيني؟

لم تفهم سلوى.

لم. تفهم.

الإجابة: الروشة

✖✖✖

عبارة شهيرة من كلمتين من أغنية لعبد الحليم،

من تأليف شاعر سوري مشهور

كيف تختصر شهورًا بجمل قليلة؟ لمَ لا يمكن ضغط الذكريات في كلمة أو اثنتين كما في شبكات التسليةَ؟ كيف يمشي الزمن؟ كيف يبطئ؟ كيف يمغط؟ كيف يُضغَط في عقلها؟

لطالما سألتْ سلوى نفسها هذه الأسئلة.

لم تقبل بعرض زواجه. ظل يلاحقها لشهر. قال إنّه لا يشرح الكثير لكن عليها أن تكون متأكدة أن الأمر لا علاقة له لا بالضغط العائلي. هو الذي يطلب يدها. «أنا»، قال. استفاض أكثر، لكنها لم تكن تقتنع. لم يُبدِ بها أيّ اهتمام عاطفي، فلماذا يريدها شريكة حياته الآن إذًا؟ حاول أن يبرّر طلبه أكثر من مرة. كان يشرح أنه مختلف. «ما ح تكوني شريكة حياتي»، قال. «ما ح أكون شريك حياتِك». هذه تعميمات. هذا تملّك. «مش هيك ح نكون».

كان أحيانًا يتوقّف ليشرح، فلا يقول شيئًا. يشرح من دون أن يشرح؟ كان يسترسل في حلقات حلزونية من الكلام تدور وتتوقّف، تعلو وتهبط إلى ما لا نهاية، من دون أن تفهم سلوى مغزى حديثه. ظل كلامه الدوّام شهرًا قبل أن يعلن لها أنّه سيعطيها مساحة شخصية لتفكّر. شدّد أن عليه أن يكون واضحًا. فيما لو قبلت به، فهو يعني كل

ما أفضى به لها. «ح نكون . . غير»، قال. لن أتدخل. لن تتدخلي. أنا اعتدت أن أعيش هكذا. فلنجرّب.

نجرّب؟ هذه كلمة كفيلة بتطيير أي عروس تقليدية. لكن سلوى أيضًا. . غير. سلوى كانت تشعر معه أنها أمام شبكة من الكلمات المتقاطعة من المستوى الصعب! كان الأمر أشبه بالتحدّي. تلعب بمستقبلها وحياتها لتتحدّى؟ لا. لم يأتِها الخاطر فورًا. شغلتْها الفكرة بالتدريج في فترة انقطاعهما عن بعض. نقص شيء في يومياتها. لم تكن هكذا قبلًا. وكعادتها كانت تحتاج إلى عذر لتقنع نفسها بخاطرٍ تملّكها. أخذت تستعيد جُمَلَه. تُعمِل فيها تحليلًا حتى أقنعت نفسها. وعندها، عندها فقط، اتصلت به وقالت: «نعم».

بعد عرس عرفت به كل بيروت للشاب ابن العائلة السياسية المعروفة الذي عقد قرانه على فتاة جميلة من أسرة عادية لكن ذات أصول، بدأ «الغيْر».

كثيرًا ما تستعيد سلوى فترة الأسابيع الأولى من زواجهما. كان الشاب فعلًا مختلفًا. في الجنس مثلًا، لم يكن يتكلّم. كان يدفن رأسه أحيانًا على كتفها، وفي مرّات كان يبتسم ابتسامته المشرقة عندما تلتقي عيناه عينيها. حتى آهاته كانت مكتومة وتفتقر لبقايا الكلمات التي تصدر عادةً في فعل الحب. لم تسمعه يومًا يستخدم كلمةً بذيئة. صارت تتوق أن يفاجئها بجنس مختلف. لكنّ الأمر استمرّ مستقرًّا عند حافّة الرقّة. كانت تفتش كلّ مرة عن اختلاف ما عن المرّة السابقة،

ولم تكن تجد.

كيف تصف الأمر؟ كأنها تحلّ شبكة التسلية نفسها كلّ مرّة. في كلّ مرّة تحلّها، ترتكب أخطاء أقلّ عن المرّة السابقة. في كلّ مرّة، تكتشف طريقة أسهل للحل، لكن النهاية قريبة، تعرف. ستحل قريبًا الشبكة بلا أيّ خطأ، ومن دون أن تعيد شطب أي حرف واستبداله بآخر. ماذا تفعل بعدها؟ تنسخ الحلّ مرة أخرى؟ وماذا بعد النسخ الأول؟ نسخ ثانٍ؟

بعد مضي أسبوعين على العرس، هي فترة شهر العسل الذي أخذها هو بعيدًا عن مكتبه وأوراقه، بدأ يغيب عن المنزل، ثم شعرت هي بالحرقة في بولها. لم يمض وقت قبل أن يعلمها حكيمها أنها حامل. عندما أعلمته، فرح. فرح كثيرًا. كثرت ابتساماته وقلت ضحكاته. هذه معادلته التي لم تفهمها سلوى يومًا: كيف يترجم فرحه بالابتسامات الصامتة، ويعبئ الأوقات المستقطعة من يومه بالضحكات؟ بدا لها ذلك معاكسًا لتطوّر الأشياء من الأقل للأكثر، من الأخفض صوتًا للأعلى، من العادي للاستثناء.

تغيّر جسد سلوى. كانت تقف أمام المرآة، وتنظر إلى جسدها العاري. إلى الشكل الجديد الذي يتخذه ثدياها وبطنها. حتى ظهرها انحنى أكثر. كانت ترى نفسها جديدة. في البدء، خافت. لكنه كان يأتي ويحضنها من الخلف. يعانقها، أو ينحني أمامها ليقبل بطنها، وكان ذلك كفيل لينسيها خوفها من الآتي.

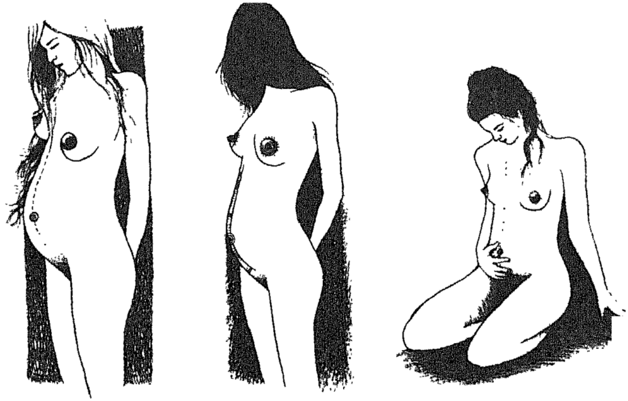

كان فعلًا غير. لم يكن يطلب الجنس معها وهي حامل. على النقيض، هي التي كانت تطلبه، وهو الذي يرفض. «عشان الولد»، كان يقول. لم يبدُ لها الأمر منطقيًا. الدكتور سمح لهما، وهما لم يمارسا الجنس من أسابيع فلِمَ لا يهتمّ؟ حلّلت كعادتها. وجد ذريعته كي لا ينام معها. ربّما الرقّة في الجنس سببها عدم استمتاعه؟ هكذا فكّرت سلوى.

رغم كل هذا، لم تتخانق معه يومًا. كان يستطيع أن يمتصّ أيّ خطّة لخلاف بابتسامة أو حركة رقيقة. لم تفهمه ولم تفهم نفسها. كانت أحيانًا تتوق أن تراه خارج هذه الصورة، أن تجرب المناكفة معه كأيّ زوجين طبيعيين، أن تبعث له برسالة نصّيّة تسأله لماذا تأخّر. لم تعرف أن تفعل ذلك. كانت تحترم إعلانه باختلافه، لكنّها كانت تغرق.

في غيابه، كانت تتكوّر عارية في السرير، تحضن رجلاها بطنها

المنتفخ، وتفكّر في كم البشر الذين يضطجعون مثلها في هذه الوضعيّة وينتظرون أن يأتيهم النوم رقراقًا كموج يمّ الروشة. كان الوقت يطول ويبطِئ وهي وحيدة في سريرها المزدوج في الفيلاّ الكبيرة التي أهداها إليها حموها. لو أرادت اختصار ما كانت تشعر به لقالت ببساطة إنّها كانت تفشل في ملء الشبكة.

الإجابة:

إنّي أغرق

✖✖✖

١١٦ حتى تتمكّن من معرفة كلمة السر عليك أولًا أن تجيب عن التحديدات المدونة أدناه وبعدها تبحث عن الكلمة المطلوبة

ملاحظة: من الأفضل تشطيب الكلمات من الأكبر للأصغر

كان الصباح قد انقشع للتوّ. قامت سلوى من سريرها، وأزاحت ستارة النافذة، ثم أخذت تنظر إلى باحة المستشفى. رأت يمامًا على الحافات يمشي بتؤدة ويطلق صوته العميق. امتدّت يدها إلى قنّينة الماء على المنضدة قرب السرير، وتجرّعت نصفها. تشعر بالنشفان هذه

الأيام، وتعطش كثيرًا. وهي تعيد القنينة إلى موضعها، التقى نظرها كومة مجلاّت التسلية التي همست لأبي جرجي أن يأتيها بها في اليوم الأول. قبعت المجلاّت هناك من دون أن تحاول فتحها. أتت إلى هنا لأنها تحمّست لتحصل على المجلاّت، وها هي لا تهتمّ بأمرها. كيف تشرح الأمر، من جديد؟ بل كيف تشرح أمورًا كثيرة؟

تعبَتْ من الشرح.

ظلّت تنظر إلى المجلاّت على مقربة من دون أن تجرؤ على فتحها لتتأكد إن كانت جديدة أو قديمة. كانت تعرف من الأغلفة بصور فنّانيها القدامى أنّ النسخ على الأرجح إعادة طباعة لأعداد قديمة. ولكنها لم تتأكد. كانت تبعد نفسها عن خيبة أمل أخرى.

نزعت إبرة المصل، وحملت «آي-بود» زوجها الذي أتاها به أيضًا أبو جرجي، وخرجت من غرفتها من دون أن تقول لأحد. كان الرُواق هادئًا. لم تمرّ بالقرب من المكان حيث تتجمّع الممرضات. مشت في الاتجاه المعاكس حتى وصلت إلى المصعد. دخلته وكبست زر الطابق الأرضي، ثم وضعت السماعات في أذنيها. أخذت تنظر إلى أرقام الطوابق تُضاء بترتيب تنازلي.

على عكس تصريح أمّها لها، قرّر طبيبها الخاص إبقاءها لأسبوع في المستشفى. قال إنّ ولادتها اقتربت ومن الأفضل أن تبقى هنا للمعاينة. في الأيام القليلة الماضية، سمعَت الأصوات وشاهدَت الأخبار المتلفزة. أطفأت الشاشة، ولم تنطفئ الأصوات. أكثر من

مرة وقفت قرب النافذة ونظرت إلى البراح في الخارج لتجد الطير قد اعتزل الباحة والأسطح . لم تعرف أين ذهب وقتها و كيف عاد اليوم . كانت أنهك من أن تبتدع نظرية من نظرياتها لتبرّر هروب اليمام . في الأيام الماضية ، كانت تكتفي بالأصوات البعيدة المكتومة ، وألوان الخطّاط الأحمر الذي كان يظهر من وقت لآخر في عتمة السماء .

كان كل شيء خافت الصوت . كل شيء . حتى إنّه لم تردها رسالة نصيّة واحدة . أمّها وأبو جرجي فقط اتصلا . طلبت منهما أن لا يأتيا من أجل سلامتهما . في هذا البلد ، لا يعرف أحد ما الذي يحصل في

الشارع حتى يطأه، وحين يطأه يحدث كل شيء غير متوقّع. تعرف سلوى ذلك جيّدًا. تعلّمته من الحرب الأهلية، آخرها تحديدًا، عندما خرج أبوها لسبب تافه من المنزل، ولم يعد إليه إلا ميتًا.

البارحة، سمعت عن عائلة قُتِل اثنان من أبنائها على الطريق. الابن الأوّل قُتِل في شارع قريب من موقع الاشتباكات، أمّا الثاني فقُتِل وهو ينقل أخاه بسيّارته إلى المستشفى. لا تريد لشيء كهذا أن يحدث. أقلّ ما تحتاجه الآن هو مأساة أخرى لا يحكمها المنطق.

لكنّها كانت تودّ أن تتحدّث، ولم تجد أحدًا لتكلّمه، ولهذا مَشَت. كانت تقنع نفسها أن الحراك هو حديثٌ مع أناس ليسوا حولها.

كانت الممرضات منشغلات بين طابق غرفتها وغرف الطوارئ.

في المصعد، رفعت سلوى خليويّها ونظرت إلى رقمه. ظهرت صورته قرب الرقم. بدا ضاحكًا كما دائمًا، ولو كانت الصورة جامدة. هذه ضحكته لا ابتسامته. كادت تبكي وهي تشعر بالطفل يلبطها من الداخل.

آخر مرّة تحدّثا فيها وجهًا لوجه كانت عندما أوصلته مع أبي جرجي إلى المطار قبل الحادثة. عندما حصل ما حصل في بيروت بعد طيرانه، إتصل بها وسألها إن كانت بخير، قال لها إنّ «الرومنغ» لا يعمل لسبب ما. شتم شركة الاتصالات اللبنانية وهو يحادثها.

سألها:

– إنتي منيحة يا سلوى؟

أجابت:

– إي . أنا منيحة . ما تشغل بالك . خلّص المعرض وارجاع . خلّيك كم يوم زيادة إذا بدك . انبسط شوي .

– سلوى . خلّيكي بالبيت بليز. ما تضهري . ماحدا بيعرف شو بصير .

– ما تعتل همّي حبيبي ، إنت انبسط .

ثم قال لها للمرة الأولى:

– بْحِبِّك أنا .

صمتت ولم تردّ . لم تقل له إنّها في المستشفى . كانت المرّة الأولى التي يقولها لها . أحبّت «أنا» أكثر من «بْحِبِّك» . بدا حاضرًا لها . سمعته يبتسم على التلفون . نعم . سمعته يبتسم ، ومنذ ذلك الوقت لم تسمع عنه شيئًا .

عندما حاولت أن تسجِّل الرقم الذي يتصل منه ، لم تجد رقمًا . فقط كلمة «Blocked» على الشاشة .

لمّا أتت إلى هنا ، حاولت الاتصال به ، لكن خطّه كان مقفلًا . كانت مشتاقة إليه ، مؤكّد ، لكنّها لم تكن قلقة . حفظت غياباته . لم تفكر حتى أن عليه أن يتصل بها وسط أحداث كهذه كأيّ زوجة تقليديّة . كانت تقنع نفسها أنّهما . . «غير» .

فكّرت فيه والموسيقى تُسكَب في أذنيها. «جالسًا هنا في الليمبو، أنتظر النرد ليُرمَى»، قالت الأغنية. لبطها الطفل، فابتسمت قليلًا، ثمّ شعرت فجأة بشيء غريب أسفل بطنها، متبوعًا بألم غير مألوف.

عندما فُتح باب المصعد، وجدت نفسها في غرفة الطوارئ. كان المشهد صاخبًا لكن بلا صوت. أناس في ثياب بيضاء وزرقاء يهرعون يمينًا شمالًا، وآخرون على الهواتف وراء الكاونتر. وحدها الأغنية في أذنيها تواصلت بلا تشويش. استندت إلى عمود قريب وهي تعضّ على ألمها. كانت اللكزات تتعاظم وتصبح كموج اليم.

اليمّ. اليمّ. اليمّ! أخذت الكلمة تتكرّر في رأسها وتكبر. أخذت تركّز في تنفّسها: شهيق، زفير. شهيق، زفير. هذه الكلمات تتكرّر في الشبكات أيضًا، فكّرت.

كانت تملأ رأسها بأفكار غريبة ومكرورة، فيما الأغنية تكمل غير عابئة بألمها المتزايد. «جالسًا هنا في الليمبو / أملك بعضًا من الوقت لأبحث في روحي». وضعت سلوى كما عادتها يدها اليمنى على أسفل بطنها لعلّها توقف الألم فلم تفلح. علت النكزات فجأة، وشعرت

بالسائل يخرج منها. رفعت نظرها للحظة لتجد شابًا طبيبًا يقف مثلها قرب العمود الآخر. نظر إليها. ظنّت أنّه سيقترب منها ليسألها ما بها، لكنّ بابَيْ الطوارئ انشقا فجأة، ودخل مسعفون يجرّون عربة نقّالة نام عليها رجل ضخم فاقد للوعي والدماء تفيض على وجهه ويديه. مرت العرّبة قربها وقرب الشاب.

فيما العربة تتخطاهما، رأت سلوى الساعد الأيسر للمصاب. كان هناك وشم أزرق لرقم تلفون وعنوان. نسيت ألمها للحظة وتابعت العربة وهي تبتعد. كان وجه الرجل، الذي لم تتبيّن ملامحه من كثرة الدماء، مربّعًا. مربعًا بشكل مريب. مربعًا كشبكة سودوكو! ثمّ علا الألم في بطنها. صارت النكزات أكثر اتجاهًا إلى الأسفل. رأت السائل تحتها على البلاط. صرخت صرخة واحدة كانت كفيلة بأن يُهرع الشاب ناحيتها. كانت سلوى تفكّر برقم التلفون على الساعد. سألت نفسها في وسط صخب ألمها إن كانت مجلاّت التسلية المعاد طبعها والمتروكة في غرفتها تحوي رقم هاتف مكتب جديد في صفحاتها الثانية كما في أعداد الثمانينيات القديمة. صعقها أنها لم تنتبه لهذا التفصيل البسيط منذ حطّت المجلاّت على المنضدة. أخذت تشد على معصم المتدرّب وهي تغمض عينيها، واستمرّت الأغنية في أذنيها: «جالسًا هنا في الليمبو / أنتظر التيار لينساب / جالسًا هنا في الليمبو / وأعرف أنّ علي الرحيل».

في تلك اللحظة، تأكّدت سلوى أن الطفل سيخرج منها. الآن

أو بعد قليل. سيخرج. وقف أبوها على الرمل قبالة اليمّ ممسكًا بحزمة مجلاّت لها. كانت تراه من الخلف وتعرف أنه هو. كانت تعرف أيضًا أنّ هذه مجلاّت جديدة لم تحلّ شبكاتها قبلًا. تلا تلك الرؤية عبور لطيف زوجها «الغير». ظهر أمامها يبتسم، لا يضحك. لكنّ ابتسامته، هذه المرّة، كانت غريبة. شعرت أنه يودّ أن يفصح لها عن شيء، لكنّه لم يتكلّم. كادت تسمع نفسها تصرخ له:

– وينك يا ألفرد؟

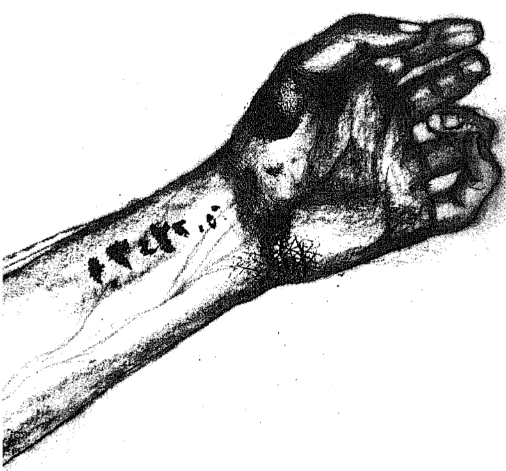

رسم الفصل التالي: محمد جابر

الأحداث

سمّوها أحداثًا.

يقول رامي: «الحرب»، فيصحّح له أخوه حسن: «الأحداث».

أسئلة رامي لم تكن تنتهي. ابن عشرة أعوام، وكان يسأل عن كل شيء. لم يرَ كثيرًا من المعارك. سمعها من وراء الشبّاك الخشبي فقط. كان حسن وأمّه ينقلانه من غرفة لغرفة كلما اشتدّ القصف. يحرّك كان سريره. يجرّانه. يهرعان به في ممرّات بيتهم في كاراكاس. من رُواق لرُواق، من غرفة لغرفة، من البحر إلى الداخل.

كان رامي يصرخ. يشدّ على أذنيه بكفّيه. يضع رأسه في حجره. يتمنّى لو أنّ رجليْه أقوى. لو أنه يقوم من السرير، ويمشي. يركض. بل يطير. لكنّه لم يقدر على تنفيذ أيٍّ من تلك الأماني التي كان يملأ رأسه بها، ولم ينجح في إخفاء الأصوات. ازدادت، وتنوّعت. أحضر له حسن قطنًا ليسدّ به أذنيه، وعندما استنفد حيلة القطن أتاه بمسجلة بسماعات رأس، ثم أتبعها بأشياء أخرى.

لا يعرف رامي إن كان حسن لا يزال يواصل فعل الأشياء في

غيابه. هل يدخل غرفته؟ هل يملأ غرفته وسريره بالأشياء؟

بعد أكثر من عشرين عامًا، أمام بحيرة الحديقة العامة في هامبورغ، يجلس رامي الثلاثينيّ بجسمه الصغير على كرسيه المدولب وينظر إلى صفاء الماء. يفكّر بأخيه الضخم وأمّه التي عرف في اتّصاله الأخير أنّها بدأت تضيّع. وضعها له حسن على السمّاعة. سألها رامي: «ماما، كيفك؟». سمع صمتًا عميقًا. شعر بنَفَسه المتحدّث الوحيد. حاول تحفيزها على الكلام. قال لها: «ماما». . وَغَصّ. أمّا هي فلم ترد إلاّ بـ «هـه؟».

اختصر المكالمة. كان متأكدًا أن أخاه يعتني بها، كما اعتنى به صغيرًا. شدّ بكفّه على كفّ صديقته الفرنسيّة التي أخرجته من غرفته ليشمّ بعض الهواء. نظر إلى أناملها الدقيقة، ثم رفع رأسه وابتسم لها دامعًا.

مع صوفي تخطّى مراحل كثيرة، أهمّها عقدة الذنب والأسئلة الاستهجانية. عندما أخذت علاقتهما تتطوّر، سأل نفسه الأسئلة المعتادة: ما الذي يجعل فتاةً جميلة مثلها تهتمّ بشابّ مقعَد مثلي؟ ليسا في فيلم أو مسلسل. الحياة أعقد من أن تختصَر بتضحيات مستمرّة. لماذا إذًا؟

صوفي كانت جازمة. «أعرف»، تقول. تعرف وستتعامل مع الوضع. ثم ما المشكلة؟ نجرّب ونقرّر بعدها. لهذا لا يتزوج الناس مباشرةً. لهذا يتعرّف بعضهم إلى بعض. لهذا يساكنون.

لكن هناك أشياء بديهية يا صوفي، يردّ رامي. لا أستطيع أن

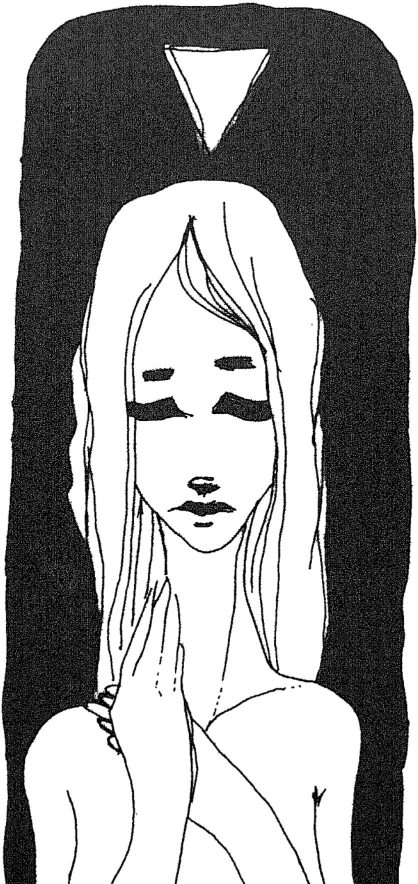

أحرِّك قدميّ كما يجب. سيحدّ هذا من حبّنا. هذا إذا ما نسيَنا تفاصيل أخرى. نفعلها مرّة، مرّتين، ثلاثًا، ثم ماذا؟ أبقى أنا السلبيّ في العلاقة؟

صوفي كانت تصرّ على أنّهما اجتازا الأصعب، وكانت محقّة. هو تحديدًا لم يستوعب كيف كانت تواظب على الذهاب معه إلى المستشفى. كيف شهدَتْ معه العلاجات الفيزيائية التي لا تنتهي والتمارين المنهِكة، والتعب، والألم. أكثر من مرة، وهي في السرير معه، استيقظ ليجدها تنظر إلى قدميه، فيسألها ما الخطب، لتبتسم بعدها وتقول «لا شيء»، ثمّ تقترب منه وتحضنه، ويشعر هو بالغرابة.

كان يسأل نفسه، هو غير المجرِّب قبلها: هل تحصل الأشياء هكذا؟

الحياة في هامبورغ أسهل من بيروت. معظم الأشياء ميسّرة للمقعدين وذوي الحاجات الخاصة. يخرج رامي ويدخل إلى مختبر

الميكانيكا في جامعته بسهولة مطلقة. محطّة الباص عند باب المبنى، ونقطة الوصول عند باب بيته، وهناك دائمًا من يساعده. هذه ثقافة هنا على ما يبدو.

ولبيته قصّة أخرى.

عندما أتت به صوفي إلى هذا المكان، نظر فوق حيث أشارت له إلى موقع الشقّة. قال لها فورًا: «نأخذها». دفعت به داخل المبنى طالبةً منه أن يتريّث، على الأقل ليعاينها من الداخل أولًا!

لم تعرف صوفي أن الشبابيك الخشبية البنيّة كانت كافية ليعجَب رامي بالمبنى ثم الشقّة. لم تعرف وقتها الحكاية.

عشر سنوات، أو ربّما أكثر، منذ زيارته الأخيرة لبيروت، لم يسأل رامي نفسه فيها: هل حافظوا على الشبابيك في بيتهم بكاراكاس؟

xxx

أخذتُ أبكي وأنا أنظر إلى الشبابيك الخشبيّة البنية تُقلَع. يودّون تغيير مظهر البناية وطلاءها بلون جديد، ووضع الستائر المقلّمة البشعة. هكذا قرّرت لجنة البناية. هكذا صار حيّنا. هذا زمن لجان البنايات، والستائر موضة تأكل شرفات بيروت كوحش جائع يتمدّد من دون

أن يوقفه أحد. أحيانًا لا أفهم هذا البلد. كيف ينتقل من النقيض للنقيض. كيف يخلقون تلك الأشياء المنظّمة داخل الأشياء غير المنظّمة داخل الأشياء المنظّمة. . متاهة. كيف أن كل شيء يمشي، ويتأقلم، ويتطوّر، ويعيش. فعلًا متاهة.

أحيانًا، لا أفهم نفسي.

أقفلوا الشارع الضيّق من جهتَيْه ليمنعوا دخول السيّارات. شاهدتُ الشبابيك تُلقى من فوق. أصدرت القطع الخشبية المرمية صوتًا عظيمًا وهي تتكوم بعضها فوق بعض، ونتج من ذلك غيمة غبار أخذت تعبر فينا نحن الواقفين تحت. فكرتُ بأخي رامي، بكلّ الأصوات التي كانت تمنعها هذه الشبابيك، باسترقاقات النظر التي كنا نحظى بها من وقت لآخر بين قطعها الخشبية. هل هناك مسلّحون، هل الشارع فارغ؟ هل هناك من يرصد المنزل؟

أحيانًا، أبرّر لنفسي.

متى بدأ الأمر؟ لمّا لبستُ تلك البدلة الداكنة؟ ولماذا لبستُها؟ لأحمي رامي؟ متى حصل هذا فعلًا؟ لا أستطيع أن أتذكر. تختلط الأشياء في عقلي. تقفز. أفكّر أحيانًا في ذكرى فأضعها في مكانها ثم أجزع. هذه ليس مكانها هنا. هذه حدثت قبل ذلك. كيف يحدث ذلك؟ ولمَ أخطئ؟

أذكرَ أنّ الشباب زارونا ليكشفوا على الغرفة. حاولوا الدخول، فمنعتُهم. قلتُ لهم إنّ أخي المقعَد المريض نائم في الداخل. ردّوا

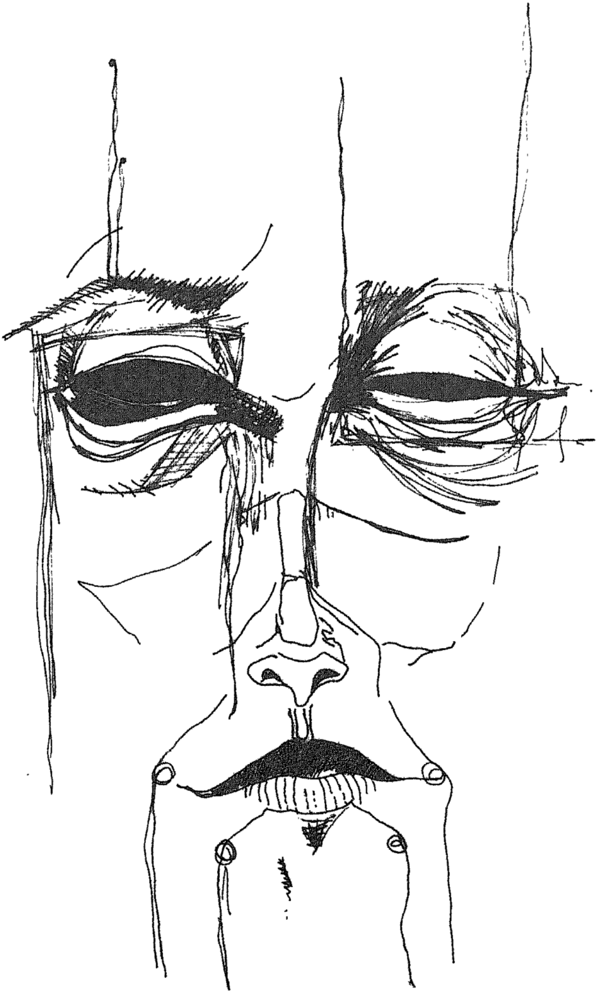

أنّ أحدًا يشتمهم من هنا. أجبْتُ أني سأتكفّل بالأمر. نظر إليَّ الشاب العشريني شزرًا وغادر.

ليلى، ذات يوم، نظرَتْ إلى وجهي، وضعَتْ كفّها على وجنتي، وقالت إنّي لا أنجح في إظهار الكثير على محيّاي. طلبت مني أن أبتسم. ولمّا ابتسمت، ضحكَتْ. سألتُها ما الخطب. قالت إنّ هذه ليست ابتسامة، وإنّي أدفن ابتسامتي داخلي.

هل أدفن ابتسامتي فعلًا؟ هل أقوم بذلك عن قصد أم من غير قصد؟ أم وجهي الغريب هو من يفعل ذلك؟ هل يتصرّف وجهي بمعزل عن عقلي؟ أحيانًا أشعر أني في مكان ووجهي المربَّع في مكان آخر. مهلًا، لعلّ تعابير وجهي هي التي ساعدتني في ليلة المسلّحين تلك؟

بعد مغادرتهم، دخلتُ الغرفة. رأيتُ رامي في مكانه في السرير كما دائمًا، ينتظر شاخصًا نحو الباب. أعلمتُه أن علينا نقل الببغاء الرمادي إلى الغرفة الأخرى التي لا تحوي شبّاكًا، أو ربما وضعه في الردهة. بكى رامي. رجاني أن لا أفعل. قال إنّه سيتوقّف عن تعليمه السُّباب، فردّدتُ بأنّ الأمر قد فات. تعلّم الببغاء الشتائم وانتهى الموضوع، وأنا لن أنتظر هؤلاء المخبولين ليرشّوا الغرفة برصاصهم من تحت. مجانين ويفعلونها. أكبرهم لا يتعدّى العشرين. أخذ رامي يبكي

بهستيرية. كم كان عمره؟ عشرة؟ هو يبكي وأنا أعده بأني سأحضر له كرسيًا نقالًا، ليستطيع التنقّل أكثر في المنزل. كان ينظر إليَّ ويواصل بكاءه. هل كان وجهي في مطرح آخر؟

هل هذا ما جعله يواصل البكاء؟

***

في الليلة المظلمة، تقف صوفي أمام النافذة وتنظر إلى رامي النائم في السرير وتبتسم طيف ابتسامة. تبكي محاذرةً أن تصدر صوتًا. لا تعرف لمَ تبكي. تشعر فقط أنّ عليها أن تفعل ذلك. من خلف الشبّاك تنظَر إلى الخارج، فتأتي رؤيتها مقطّعةً بالأخشاب. لم تفهم يومًا لماذا يُبقي رامي الشباك مغلقًا وهو في الغرفة. عندما يكون في الجامعة، تغتنم الفرصة، فتفتح النوافذ كلّها. تعرِّض الشقّة للهواء. تحاول طرد الهواء الفاسد. لو فكّر رامي منطقيًا لطالبها هو بذلك. الهواء الفاسد تحديدًا لا يلائمه. لكنه يأتي عند هذا التفصيل ويجزم بـ«لا» بشكل غريب.

هذه ليلة غريبة. في الخارج مواء قطط. هل هو موسم تزاوج؟ لا. لماذا إذًا تصدر الحيوانات تلك الأصوات؟ تعبر هذه الأسئلة رأس صوفي ولا تجد لها أجوبة. تفكّر بأفراد عائلتها الذين لم يخرجوا من

مزرعتهم البعيدة. تفكر في كل الحيوانات التي عاشت بينها وتشعر بحزن عميق يصعب عليها وصفه. كأنّه بئر عميقة، وهي عندما تمدّ يدها داخلها لا تجد شيئًا، تطفو اليد على السطح، تصطدم بذلك الجدار الخشبي، تمامًا كهذه النافذة. لكنها هنا، على عكس تلك البئر، تستطيع أن ترى ما يحدث في الخارج، وإن برؤية مقطّعة. ها هو الخبّاز في البناية المقابلة يفتح باب محله الجرّار، وهذه عربة النفايات تمرّ وتتوقّف قرب الحاوية، وهذا أحد الفتيان يركض في ظلمة الباحة فيتخطى المحلّ والعربة.

في الرؤية المقطّعة، ظهرت رجلا الفتى. مرّت الرجلان من يمين رؤيتها ليسارها قبل أن تختفيا. توًّا التفتت صوفي إلى رامي في السرير. حدّقت برجليْه المغطاتيْن، وشعرت بحزنها يتوغّل عميقًا في البئر حتى كاد يثبت.

مشت باتّجاه السرير وهي تكفكف دموعها بقفا كفّيها. صعدت السرير بحذر. كان رامي نائمًا فاغر الفاه. تحركت وجنته قليلاً. هذه حركة يقوم بها وهو نائم. ليست المرّة الأولى التي تلاحظها صوفي.

ظلت تنظر إلى رامي محاولةً أن لا تفكّر بحزنها. كانت تتفادى أن توجه تفكيرها إلى ذاك الاتّجاه، ولأنها أرادت ملء رأسها بالأفكار، لم تجد إلا وجه رامي أمامها ليساعدها في ابتداع أفكار كهذه. تحرّكت تلك العضلة في وجنة رامي مجددًا. تساءلت أتكون هذه الحركة نتاجًا لما يراه في حلمه.

هل يحلم الآن؟

❋❋❋

من زار رامي في نومه؟

كان يطير. رأى رؤوس مبانٍ تخرق الغمام الأسود. تحرّكت رجلاه بانسيابية. صفقتا في الهواء. أخذ رامي ينحدر نحو أسطح المباني. لفح الهواء بشرته للحظة. عندما نظر إلى الأعلى، وجد أن الغمام صار فوقه. كان باطن الغيم أبيض اللون. صار بين البنايات. مرّ قرب الشرفات والشبابيك، وترجّل في الهواء. أمسك بدرابزين إحدى الشرفات، وحاول أن ينظر إلى الداخل. كانت كل الشبابيك مغلقة. كأنّ البنايات تأبى الإفصاح عمّا فيها. كأنها تساهم في إخفاء التأكيدات عن هويّة المكان. لكن رامي عرف أنه في بيروت. حاول أن يركّز ويستدعي السبب الذي أوصله لقرار جازم كهذا، فلم يستطع أن يحصر أفكاره. واصل طيرانه من شرفة إلى أخرى علّه يجد شيئًا مختلفًا ولمّا لم ينجح، حطّ على الأرض. وجد الزفت جديدًا. لا حفر، ولا مطبات، ولا بقايا ردم. نظر إلى رجليه أولًا، ثم قدَّم رجله اليمنى، فاستجابت. قدّم رجله اليسرى فاستجابت أيضًا. بعد لحظات، وجد نفسه يمشي كأي إنسان طبيعي. كان الشارع فارغًا من أي شيء. لا

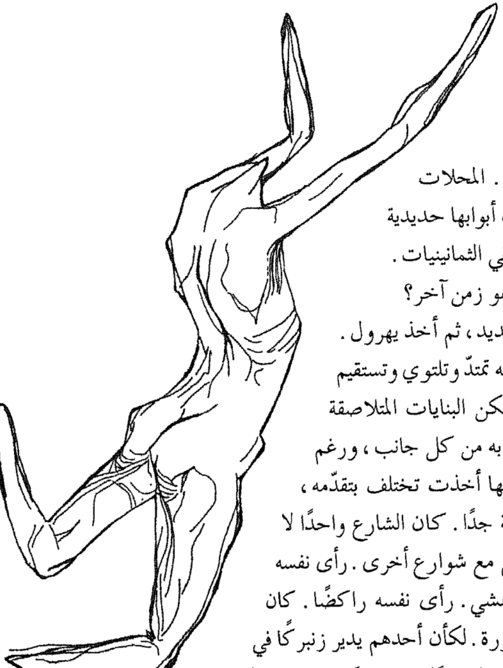

أحد على الطريق. المحلات
مقفلة. ولاحظ أن أبوابها حديدية
جرارة تمامًا كما في الثمانينيات.

الزمن، هل هو زمن آخر؟

مشى من جديد، ثم أخذ يهرول.

كانت الطريق أمامه تمتدّ وتلتوي وتستقيم ثم تنحني. ولم تكن البنايات المتلاصقة تقلّ. كانت تحيط به من كل جانب، ورغم أن ألوانها وأشكالها أخذت تختلف بتقدّمه، ظهرت له متشابهة جدًا. كان الشارع واحدًا لا ينتهي، ولا يتقاطع مع شوارع أخرى. رأى نفسه من الخلف وهو يمشي. رأى نفسه راكضًا. كان يتوغّل داخل الصورة. لكأن أحدهم يدير زنبركًا في مكانٍ ما فيجعله يوغل قدمًا. وهو يركض، رفع نظره من جديد إلى الغيم وفكّر أنه لن يفهم هذا.

لن يفهم هذا يومًا.

صحَتْ صوفي في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ رامي. كم نامت؟ لم تنظر إلى الساعة ولم تتأكد. كانت تشعر بالوهن، لكن النوم كان قد هرب منها. ظلّت لفترة في سريرها تنظر إلى السقف. كان السقف فارغًا من أي شيء. فكّرت أن تملأه بالرسوم قبل أن تعدل عن قرارها. أحدهم يقوم بهذا الفعل في مكان آخر من هذا العالم، فكّرت.

قامت من سريرها بخفّة، حملت الثياب التي وجدتها خارج الخزانة، وخرجت من الغرفة ثم أغلقت الباب وراءها، وشرعت ترتدي ملابسها في مدخل المنزل. ثمّ نزلت الدرج بهدوء، حتى وصلت إلى درّاجتها المركونة في مدخل البيت.

ساقت صوفي طويلًا. ربّما ما يقارب الساعة. تخطّت محطّة القطار القريبة إلى أخرى أبعد منها وأكبر. في الباحة الخارجية للمحطّة، وقفت أمام درّاجتها وصارت تنظر إلى البناء الضخم وإلى كل تلك الأرجل التي تدخل أو تخرج من الأبواب. اقتربت من البناء، ثم دخلت إلى الباحة الرئيسية. خطَت باتّجاه صفّ شبّاك التذاكر، وتوقّفت. كان الناس يتحرّكون ببطء. ظلّت تنظر إلى الأرض كل الوقت وتتحرّك أوتوماتيكيًّا إلى الأمام كلما وجدت مساحة فارغة خُلقَت أمامها. عندما وصلت إلى الشبّاك سألها البائع عن وجهتها والقطار الذي تودّ أن تحجز عليه. صمتت لثوانٍ، فأعاد البائع السؤال. وجدت نفسها تعتذر منه وتغادر الصفّ. أسرعت خطاها مرة أخرى إلى الخارج

من دون أن تنظر وراءها. وقفت من جديد أمام درّاجتها. فجأة، عبر الباص أمامها في الشارع، وتوقّف على مقربة. فكّت صوفي قفل درّاجتها، وركبت عليها ثم ساقتها مسرعةً ناحيته. هناك ترجّلت، حملت الدرّاجة، وصعدت الباص.

***

كيف تتكرّر الأحداث؟ هل تحصل الأمور عن قصد؟ هل هناك من يبعث لي بإشارة ما؟

سألْتُ نفسي هذه الأسئلة عندما وجدتني من جديد أمام ذاك المشهد. طرق عنيف على الباب، ومن ثمّ يظهر فتيان يحملون السلاح، أكبرهم لم يبلغ العشرين. يقول لي أحدهم: أبو أحمد يسأل عنك، فأذهبُ معهم، بعد أن أوعِز لجارتنا أن تبقى مع الماما.

هو المشهد نفسه باختلافات طفيفة: اللباس مثلاً. هذه ليست ملابس ثمانينيات. الأكمام آنذاك كانت تبدو أكثر انتفاخًا وتمتد من الكتف إلى الكوع. هذه الأيام، يظهر اللباسُ الكتفَ أكثر. بات للأجساد الفتية سطوتها على الملابس، تكاد هي تغطي الملابس الضيقة لا العكس.

لكنّ السلاح هو نفسه. بل صار قديمًا. أعرفه. أحفظه. من أي

أرض انتشلوه؟ أنا دفنتُ الأسلحة في الحديقة الخلفية لبيت الضيعة، ولم أسمح لأحد بأن يحرث الأرض. حتى الماما صار ممنوعًا عليها أن تزرع شتلات البقدونس والبندورة والبطاطا. البطاطا تحديدًا كانت أكثر ما يؤرقني، فهي تنبت تحت الأرض. كنتُ أفكر في ذلك المشهد التي تنحني فيه الماما صيفًا لتنتشل جذع بطاطا ويطلع معها فوهة بندقية. لا يحصل ذلك في الأفلام فقط. الأفلام سَرقت كثيرًا ممّا حصل هنا في الثمانينيات وإن شذّبت بعض التفاصيل عندما طلعت على الشاشة.

كنتُ آخذ رامي على الكرسي المدولب وأذهب به إلى سينما «ستراند». هناك شاهدنا فيلم «كريستوفر كولومبس»، وهناك رأى رامي الثدي الأول على الشاشة لإحدى الهنديات الحمراوات، عندما نزل كريستوفر من السفينة.

لكن كل ما كنا نكتشفه في الأفلام كان عاديًا. ما كان يؤثر فيّ كان غير. شيء ما في داخلي كان يُلمَس عندما أجدني أمام تلك المقدمات الموسيقية للأفلام التي يطغى عليها صوت رجل، يحدّثنا فيها عن يومه العادي القادم، عن يومه الأول في المدرسة، عن اليوم الذي يلتقي فيه حبيبته أو الذي تموت فيه أمه، أو ربما يوم حصول الحدث الذي سيكون محور أحداث الفيلم، أو يومه الأخير في الحياة.

تبدأ الكاميرا من فوق ونرى كل شيء أبعد، أوسع، أصغر، ثم تغوص بنا فوق الغيمة الأولى ومن ثمّ الغيمة الثانية ونسرع في الاقتراب لنرى المدينة أولًا من فوق، ثم سطح المباني، ثم الشوارع، إلى أن

ندخل بعدها من نافذة إلى غرفة ومن باب إلى درج، ومن طابق إلى طابق إلى أروقة إلى غرف أخرى. والصوت لا يتوقّف يحدّثنا بكلام مموّه يُراد منه أن يدفعنا داخل القصة. ثم أضيع أنا. أصبح داخل الشاشة، وأصير أحدث نفسي وأروي قصّتي.

لكن من أين أبدأ قصّتي؟ وكيف ننتقي اللحظات التي تبدأ فيها قصصنا؟

***

تكمن كل الحكاية في فهم كيف تُصمّم محاور الحركة والأسطح التي يتحرّك فيها الشيء.

أمام الذراع الحديدية، في مختبر الجامعة، جلس رامي ينظر إلى النموذج الذي حضره. حاول تحريك الذراع المرفوعة على حامل. تحرّك النموذج في الاتجاه الذي أراده. جرّب ثنيه أكثر. وجد أن الذراع تتوقّف عند زاوية معيّنة. قاسها، ونظر مجدّدًا إلى رسومه على الورق، وكتب قياس الزاوية. اقترب بكرسيه المدولب من

شاشة الكمبيوتر وتتبع الخرائط الكهربائية التي حضّرها أصدقاؤه في القسم، وقرر أنّ عليه أن يزيد الزاوية حتى يمكن ثني الذراع بقدر أكبر عند إرسال الأمر الكهربائي كما هو مطلوب.

بعد أن سجّل ملاحظته، نظر إلى الخليوي. كانت شاشته ساكنة، لم يجد أيّ اتصال من صوفي. تفقّد الرسائل النصّيّة. لا شيء. نظر إلى الساعة فوجد أنه قضى ما يقرب الأربع ساعات في المختبر. هذا غريب. أين صوفي؟ ألم يتفقا على مشاهدة فيلم الليلة؟

رفع هاتفه واتصل بها.

***

اشترت صوفي خبزًا من «الكيوسْك» وسط الحديقة ثمّ مشت مع دراجتها باتجاه البحيرة. لم يكن هناك كثير من الناس حولها ماشين أو قاعدين. فقط البعض الذين يمكن عدّهم. قبالة البحيرة، أوقفت درّاجتها وجلست على المقعد الحجريّ وأخذت تقسم من إصبع الخبز وتقذف بالفتات إلى الماء. تسابقت البطات مقتربةً. ظلت صوفي ترمي الخبز حتى وصلت إلى نصف الأصبع. بعدها أخذت تقسم منه وتأكل. أحسّت بالجوع فجأة. تذكّرت أنّها لم تأكل شيئًا منذ الصباح. لعلّ أرق الليلة الماضية هو ما جعلها تشعر بالإنهاك. أحسّت

بتعب في يديها وقدميها. وقفت ورمت ما تبقى من إصبع الخبز في البحيرة، ثمّ أخذت تمشّي درّاجتها بجانبها على الطريق المشقوقة بين الخضرة.

سمعَت هاتفها يرنّ من داخل حقيبتها الموضوعة في سلّة الدرّاجة، لكنّها أكملت طريقها ولم تُخرجه. ظلّ الرنين مستمرًّا. انتهت نغمة الأغنية وبدأت من جديد. كان صوفي تسرع من خطواتها. عندما توقّفت للحظة وتوقّف الهاتف عن الرنين، طفحت عيناها بالبكاء. نظرت حولها فلم تجد أحدًا، فلم تحاول أن تكتم نشيجها.

***

١٤٥

أشعر أن حياتي في لبنان كانت دائمًا محاولات متكرّرة لتفادي الأشياء. أتفادى الأذى، أتفادى الكسر، أتفادى الأسوأ بالسيء. هذه هي. أتفادى الأسوأ بالسيء. هذه هي فعلًا. حتى إنّني من الممكن أن أزيد فأقول إنني تفاديت السيء الذي قد يلمّ بي أو بعائلتي، بإيذاء غيري. أحيانًا، ينجح هذا عندنا. لا على الأرض. هذا ينجح، لحظة تفكّر فيه، وأنت تقيم في اللحظة. هذا يريحنا. وأنا ماذا؟ لعلّي كنتُ أحتاج إلى ذريعة؟ المرّة الأولى، انضمَمْتُ إليهم لأحمي رامي. استلمتُ الشارع. منعْت القواص هناك. حتى المشاكل التي كان بالإمكان أن

تتطوّر كنت أرميها بعيدًا عن بيتنا. لكنّ كاراكاس منحدرة وتواجه البحر، ولم يكن بالإمكان صدّ ما يعبر من البحر إلى الشوارع، والأمر نفسه ينطبق على السماء. لم أستطع أن أبعدها عنّا. كنتُ أسيطر على بعض الأرض فقط.

لكن ما الذي حصل هذه المرّة؟ أردتُ أن أحمي الماما؟ لستُ مضطرًا. منذ البدء عرفنا أن هذه حرب موضعية. ومنذ البدء عرفتُ أن لا أحد لنواجهه في الحمراء. لماذا ذهبت إذًا عند أبو أحمد؟ شيء ما قال لي إنّ عليّ فعل ذلك؟ ودَدْتُ أن أرى ما يحصل؟ أعرف أنني كنتُ أمشي في طريق، وأرى الاختلاف. في الحرب الماضية، كانت هناك أسباب صلبة لكثيرين شاركوا فيها. الآن ما الأسباب؟ لا أفهم، رغم كل التبريرات على الشاشات والكلام المتناقض. الأسباب مائعة.

فيما عدا الفترة الماضية التي كنا نعيش فيها ولا نعيش، ليس هناك من شيء يدفع لهذا الإنفجار. شيء ما يبدو غير مقنع. شيء ما يبدو عبثيًا بقدر عبث اختصار الموضوع بيننا وبينهم، أو فينا فقط.

عند المخضرمين منّا، نحن الذين استلمنا الشوارع، كانت الوجوه غاية في القِدَم. حتى أجساد البعض بدت منفوخة بطريقة غريبة. كأنّ الأجساد التي مرت بكل هذه السنين لم تتوافق والثياب الجديدة. أنا تعرّفت على أكثر من وجه. بعضهم كان في المقلب الآخر في الحرب الماضية. كنا نقوّص بعضنا على بعض. والآن ضحكنا وضربنا كؤوس العرق، ووضعنا مارتديلا في أرغفة الخبز الإفرنجي

وفتحنا علب السردين .

وأنا ألتهم ساندويشًا ، نظرتُ إلى من معي . كانوا يضحكون . حظيتُ بلحظتي الصوتيّة كما في أفلام سينما «ستراند» . صرتُ أسأل: من أين أتوا؟ هل فتحوا لهم أبواب الزنازين؟ أم أنهم مثلي يعيشون في شقق ، يعتنون بأمّهاتهم المريضات ، ويوزعون كابلات «الستالايت» لقاطني شوارعهم؟

ثمّ ألا تردأ الحكاية عندما تُستكمل قصرًا؟

***

١٤٧ جلس رامي في السينما وحيدًا . انتقى فيلمًا بلا مشاهدين . كان في الصفّ الأخير على كرسيّه المدولب . خليويّه في حجره ، ينظر إليه كل فترة ليتفقد إن إستقبل اتصالًا أو رسالة نصّيّة من صوفي . عندما يئس من النظر ، ركّز أكثر في الفيلم . كان الفيلم قديمًا صامتًا ، تتخلل مشاهده فقط الموسيقى ، مضى الممثلون يتحركون بسرعة أكثر قليلًا من المطلوب ، وبتعابير وجهيّة أكثر تطرفًا . هكذا كان الزمن الماضي ، فكر رامي . أسرع؟ أكثر وضوحًا؟ ليس من هواة إسباغ الصفات الحسنة حصرًا على كل ما مضى . يتذكّر أيّام الحرب في بيروت . هذه لم تكن جميلة على الإطلاق مثلًا . هو إذًا يسبغ صفات أزمته على

فيلم؟ هل هي الحركة؟ هل هما قدماه؟ لن يجد أجوبة. هذه أسئلة تدور في الرأس فقط. قد تؤثر على أفعاله، لكنها لا تأتي مع أجوبة. الأصل فيها أن تكون بلا إجابات. الأصل فيها أن تدفعه إلى الأمام. أن تمشّيه في طريق. لكنه رغم ذلك، لن يقدر أن يمشي. سيبقى جالسًا على هذا الكرسيّ. كلما غاب أحد عنه، ضربَتْه الأسئلة. حاصرَتْه، أجهزت عليه.

حاول أن يهرب من الحركة المبالغ بها في الفيلم إلى جدران الصالة نفسها. ذكرته بتلك السينما في الحمراء. ما كان اسمها؟ هل أعادوا افتتاحها؟ في الزيارة الأخيرة له للبنان، مشّى حسن كرسيَّه على رصيف الحمراء. مرّا بالقرب من الصالة. كانت هناك ملصقات من وراء أبواب السينما الزجاجية المغلقة بجنازير: «الافتتاح قريبًا». مرّ
١٤٨ أكثر من مرّة من هناك خلال إقامته في بيروت. بقي يرى «الافتتاح»، وبقي يرى «قريبًا».

يذكر مقاعد السينما وينسى اسمها. تمامًا كهذه المقاعد. يذكر الارتفاع العالي للسقف. تمامًا كما هنا. كأنّ شيئًا ما في هذا الارتفاع يلائم الأفلام البائتة. يذكر رائحة الرطوبة في آخر فيلم شاهده هناك قبل أن يقفلوا الصالة. يذكر الرائحة النتنة حتى تكاد تدخل أنفه، لكنه لم يستطع أن يتذكّر الفيلم الأخير، ولم يعرف لماذا.

اشتاق لحسن فجأة. سيتصل به عندما يصل إلى البيت. يتصل به كل يوم منذ نشوب الأزمة، لكنّه لا يردّ توًا، بل يعاود الاتّصال به.

يقول إنّه كان في الحمّام أو نائمًا أو يعتني بماما. البارحة فكّر أن حسن يخفي عليه شيئًا. هل الماما مريضة؟ هل حدث شيء؟ عبر رأسه أكثر من خاطر لكنه دفن كل ذلك لحظة أجاب أخوه على اتّصاله.

حمل رامي هاتفه وأخذ يقرأ الرسائل القديمة. كان الفيلم على الشاشة ينتهي. مضى الفيلم كله ولم تتصل به صوفي.

***

في غرفة الفندق، استلقت صوفي على السرير. امتدّت يدها إلى شنطتها الرياضية القريبة، ثمّ بعد لحظات من التفتيش، سحبتْ منها ورقة.

جلست على حافة السرير، وفتحت الورقة المطوية. بان رقم الهاتف اللبناني فيها. الرقم ذاته، لم يتغيّر يومًا. لمَ لا تحفظه في ذاكرة تلفونها إن كانت تستخدمه مرارًا؟ لم تعرف أنَ تفعل هذا. حاولت وفشلت. حفظتْه أكثر من مرة ثم محته. لم تشعر بالرغبة في وضعه على خليويّها. أبقته مكتوبًا، وكانت تنقله من شنطة إلى شنطة، ومن درج إلى درج، بعيدًا عن رامي. كانت الورقة تتهلهل بمرور الوقت، حتى إنّها اضطرت ذات مرّة إلى أن ترميها بعد أن نسخت الرقم على ورقة أخرى.

رفعت صوفي سمّاعة هاتف الغرفة، وطلبت الرقم. انتظرت لثوانٍ كان الصمت فيها عميقًا، ثم سمعت صوت العاملة اللبنانية يعلمها أن الخطّ غير متاح. أعادت السمّاعة إلى مكانها، ونظرت إلى أرض الغرف المغطّى بالسجّاد الكثّ. فكّرت في رامي. كيف صعد اليوم إلى البيت؟ هل يستطيع أن يتعامل؟ فكّرت في العودة لكنها طردت الخاطر سريعًا بفيض دمعها. كانت رجلاها مضمومتين وكوعاها يستقران عليهما، فيما كفّاها تغطّيان وجهها. بلل الدمع كفّيها، وكانت لا تستطيع أن توقفه. هذه هي المرّة الأولى التي تبكي فيها بهذه الوتيرة منذ زمن. انفلش كل شيء وتعاظم. عادت بها الذكرى إلى ذلك التلفون الغامض التي تلقّته قبل سنتين، وأخذت الصوَر تهجم عليها وهي مغمضة العينين. أبعدت كفّيها المبلّلتين وفتحت عينيها وصرخت مرسلةَ الضغط إلى خارجها. من يديها، سقطت قطرة دمع، وغرقت غير مرئية في السجّاد البنيّ الغامق.

***

في حلم رامي، لم يستمر الشارع الواحد إلى ما لا نهاية. وهو يهرول، وجد البنايات حوله تهبط في الأرض.

كانت المباني تغوص في الأسفلت بلا صوت، ومن غير أن

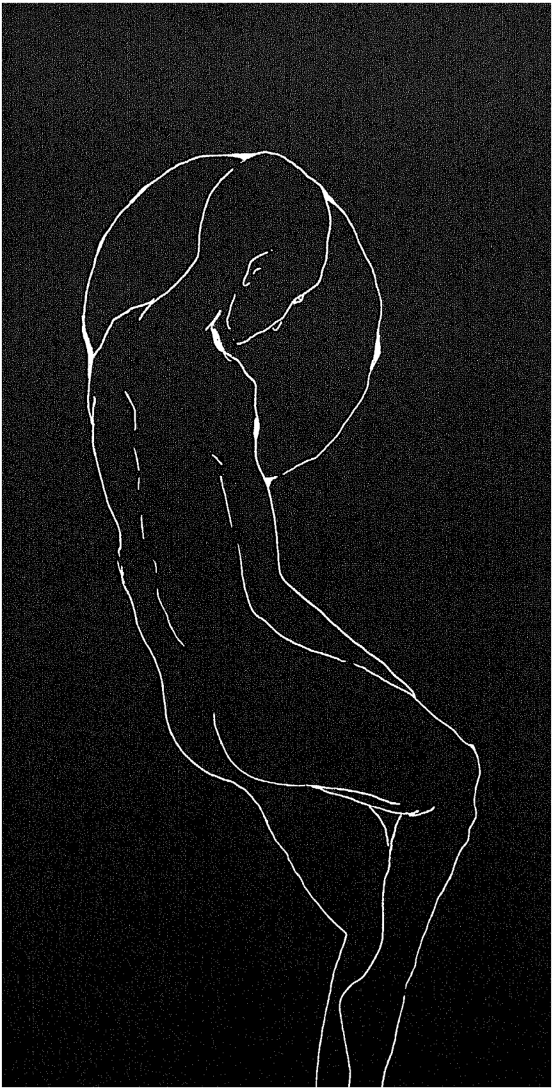

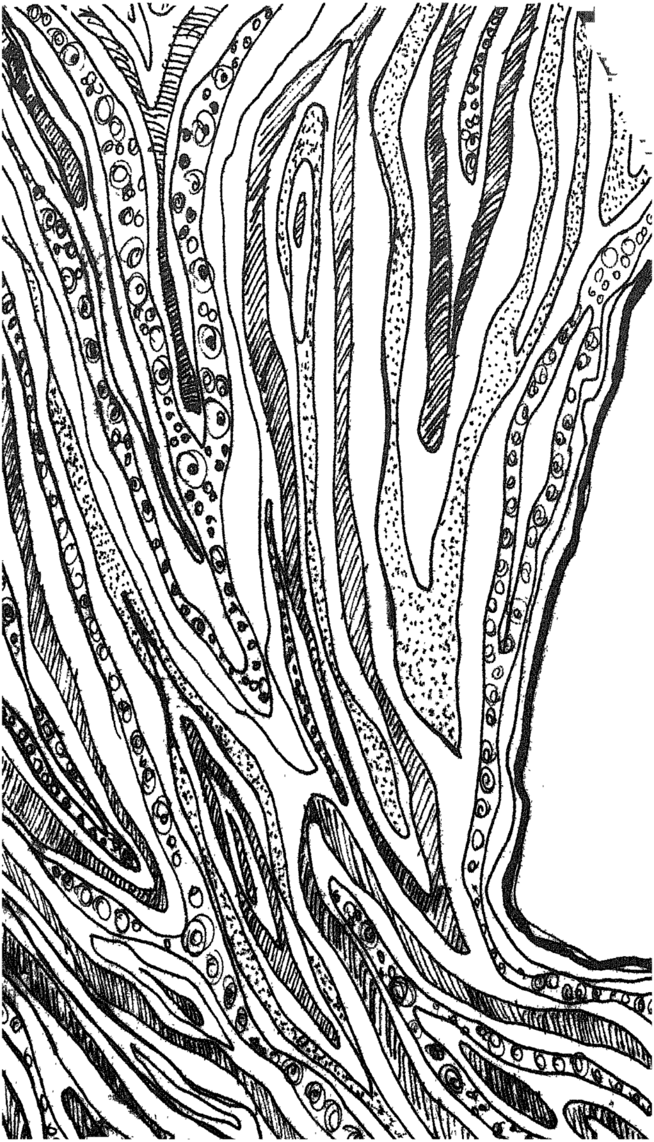

تتهشّم. كأنها في غرقها تسلك طريقًا اعتادته. توقّف رامي، وأطلّ من نصف نافذة بانت فوق الطريق، ثمّ قبْل أن يتبيّن داخل الشقة، اختفت النافذة كلياً تحت. راقب النافذة التي فوقها تلحق بها إلى الأسفل. ابتعد وأكمل مشيه وهو ينظر إلى ما يجري. كانت الرؤية أمامه تنكشف عن مشهد آخر. فجأة، فهم ما يحدث. كانت المدينة بأكملها تغرق، وترفع من تحتها طبقتها المطمورة. رُفِعَتْ نسخة أقدم منها. كانت المباني غيْر، والحجر غيْر، والأرصفة غيْر. وحده الأسفلت ظلّ كما هو. لم يكد رامي ينتبه لهذا التفصيل حتى رأى شقًّا في منتصف الطريق يتجه نحوه. رغم ذلك، لم يشعر أن عليه أن يخاف. كان متأكدًا أن الشقّ سينتظره ليبتعد. بيقينه هذا، اقترب ناحية المباني الحجرية ببطء، ثمّ حدث ما كان أكيدًا منه. توقف الشرخ عن المشي قبل أن يصل إليه بقليل. وضع رامي يديه على رخام شرفة من المباني الجديدة وتسلّقها. ما إن وصل إلى داخل الشرفة حتى تحرك الشرخ من جديد مواصلاً طريقه وسط الشارع، ثم أخذ يتّسع ليظهر من تحته أسفلت آخر، من دون أن يؤثر ذلك على المباني الجديدة على جانبي الطريق. هكذا، غاص الأسفلت القديم في جانبي الطريق، ولم يمضِ زمن طويل قبل أن يغيّر الشارع بأكمله جلده حتى ظنّ رامي أنه دخل فيلمًا آخر.

***

عندما كلّمني أبو أحمد، قال كلامًا متناقضًا كثيرًا. لم أفهم أولًا لمَ أتوا بي، ولم أفهم ثانيًا لمَ أنا تحديدًا. لكنّي كنتُ قد عزمت. أعطوني القليل من النقود، وقالوا إنّهم سيعطوننا أكثر عندما تتضح الأمور أكثر.

لم أكن أتحدّث. كنتُ أستمع فقط. وهكذا، عدت إلى البيت. نظرت إلى ماما النائمة، ثم خرجتُ طارقًا الباب على جارتنا. طلبتُ أن تهتم بها ليومين آتيين، وأعطيتها النقود التي أخذتها منهم.

الحمراء كانت غريبة ذلك المساء. كأنها كانت تستعد. بدأت الشوارع تفرغ من الناس عند الرابعة. اختفى الزحام. كنتُ أحمل هويتي وأوراقي كلّ الأوقات، في الجيب الخلفي لبنطالي. أخرجت الخليوي وأنا أمشي، قلّبت في الأرقام، حتى عثرتُ على الرقم، وطلبته. رنّ التلفون خمس مرات قبل أن يخرج الصوت الأنثوي
متحدّثًا الإنكليزيّة بطريقة ألمانيّة، وأجيبه أنا بإنكليزيّتي الرديئة.

– آلو.

– آلو. لا أستطيع أن أتحدّث الآن.

– هل هو قريب منك؟

– في الغرفة الأخرى.

– حسنًا. لن أطيل الكلام. اسمعي. شيء ما قد يحدث، وأريدك أن تهتمّي به في حال حصوله.

– لم أفهم.

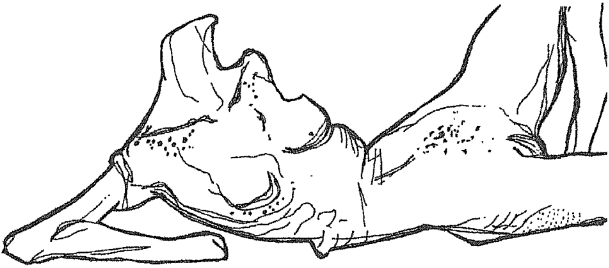

– لا أستطيع أن . .
– إسمع . سأحدّثك لاحقًا . إنّه يناديني .
– . .

تنهدتُ مرّة . تنهّدتُ كثيرًا . أخذت أشهق وحيدًا في الشارع . ملأتُ رئتيَّ بالهواء . كان الضغط يطبق على أذنيّ وصدري . وأنا أمشي ، وجدتُ واجهةً زجاجية تحفل بالكثير من الأشياء الغريبة . على الواجهة الزجاجية استقرّت طبعة انكليزية:

Tattoos

لم أقف طويلًا أمام الزجاج . دفعتُ الباب ودخلتُ .

xxx

أخذَت صوفي تنظر إلى شاشة خليويّها المعتمة . وضعَت إصبعها على زرّ التشغيل ، لكنّها تراجعت ورمت الآلة ثانيةً في حقيبتها . ركّزت نظرها في صحنها الصباحي في حديقة الفندق . وهي تنظر إلى طرف صحنها وجدت ولدًا يدور حول كرسيّ امرأة بدا أنّها أمّه . كان

قريبًا جدًّا، وخيِّل لها أنّه ابتسم فجأة لها، وصنع حركة بأصابع كفّيه.

ذكّرها الولد بأولاد اختها. ذكّرها بتلك المرحلة من حياتها عندما كانت ترى عائلتها مرة في الشهر. مرة واحدة. تأتي إلى بيت الريف، محمّلة بفاكهة المدينة والنبيذ الأحمر لأبيها. وعندما كان يقول لها: «عندنا نبيذ كثير هنا»، كانت تردّ: «هذا نبيذ مستورَد».

ذكّرها الولد بتلك الأيام حين كانت أمّها تسألها عن عملها فتجيبها بأنّ كل شيء جيّد في الجامعة. ذكّرها بكذبها وهي تبيع الحب لكل شاب يطلبها في نادي الغرام. كانت تقنع نفسها وتقول: هذا ليس ماخورًا. هذا نادي غرام. كانت تقنع نفسها وتقول: أنا لا أبقى هنا. أنا أُطلَب إلى هنا. آتي مرتين في الأسبوع. أقوم بما أريده خلال النهار. هنا الزبائن غير، والأشياء أكثر لطفًا. هنا الأشياء محدّدة بدقّة منذ البدء، والزبائن هم هم. وجوه مكرّرة حتى لا تكاد هي أو صديقاتها ترى وجهًا جديدًا إلاّ كلّ أشهر. ١٥٧

إلى أن زارها ذلك اللبناني في النادي. طلبوها وقالوا لها هذا زبون جديد. اللبنانيون يدفعون. وهكذا دخلتْ الغرفة. انتظرته أن يبدأ. لكنّه جلس على الأريكة، وقال:

– لديّ صديق يحتاج إلى . .

ثمّ صمت، وأعاد تركيب جملته.

– لصديقي أخ هنا في ألمانيا. ليس بعيدًا من هذا المكان. سيعطيك مالًا شهريًا لقاء دوام عمل كامل.

– ما العمل؟
– أخوه. . لا يستطيع أن يمشي.
– ممرضة؟
– لا. لا يحتاج إلى الكثير من العناية. اعتاد وضعه منذ زمن. إنّه يدرس في الجامعة حتى. الجامعة نفسها التي تدرسين فيها.
– ماذا إذًا؟
– تقرّبي منه حتى تعيشي معه في شقّة واحدة. أحبّيه.
تذكّرت صوفي هذه الزيارة لمّا خيِّل لها أنها رأتْ ابتسامة الصبيّ.

xxx

١٥٨

كان الإسفلت الجديد ساخنًا. خطا رامي عليه وأحسّ بالحرارة تصعد إلى جسمه من قدميه. صار يركض مجدّدًا. وجد نفسه هذه المرّة وسط ساحة واسعة بأبواب سبعة. قفز إلى شرفة قريبة، وخلع حذاءه. كان نعله قد ذاب من فعل حرارة الأرض. خلع الفردتين، وأخذ يهوّئ قدميه بالمشي فوق البلاط. ظلّ يفعل هكذا، حتى أحسّ بالبرودة تنتقل من جديد إلى كعبيْ رجليه، فتوقّف، وأخذ يتفحّص الساحة بأبوابها الكثيرة. لم يكن هناك إلاّ رَجُلَان معمّمان يلبسان عباءتين متشابهتين. كان الرجلان يمشيان معًا قرب كلّ باب

ويتوقّفان ، ليسأل الأوّل الثاني:

– هنا؟

– لا . تروي الحكاية أنّه سيأتي من الغرب . من البحر .

مشيا إلى باب آخر بعيد عن الشاطئ وأعادا الحوار نفسه . كان رامي يسمعهما بدقّة كأنّهما يجلسان بقربه في الشرفة . كان الصوت يصله بشكل غريب منافٍ للمنطق، ولم يفهم. لم يفهم لماذا على الرجليْن أن يكرّرا الحوار نفسه أمام كل باب غير غربيّ .

بعد خمسة أبواب أو ستة (أضاع رامي العدّ) ، توقّف الرجل الأوّل وقال لرفيقه:

– بقيَ بابا السنطيّة وإدريس .

أجابه الآخر:

– فلنفترق .

تابع رامي الرجلين يفترقان. وقف أحدهما قبالة باب السنطيّة ، ووقف الآخر قبالة باب إدريس. كانت المسافة بينهما مختصَرة . وفكّر رامي أن هذا منطقي لأنه في حلم . مشى من دون أن يحاذر إصدار أيّ صوت. كان يعرف أنهما لا يشعران بوجوده ، وأنه هو فقط من يستطيع رؤيتهما .

انتقل إلى شرفة أخرى مواجهة لناحية

الشاطئ، ومن هناك تبيّن ما يكشفه البابان. رفع الرجلان عَصَواهما في الهواء وكأنهما يستعدّان لشيء. عندما دقّق رامي في ما يبدو قادمًا من وراء البابين، وجد موجة عظيمة تركض باتجاه الشاطئ. رآها تتقدم نحو الرجلين. ثمّ فجأة، بان جسم أخضر من بين الأمواج. شيء طويل. ذَنَب. ارتفع الذنب في الهواء ولطم الموجة من دون أن يكسرها. كانت الموجة ثابتة في حجمها وفي سرعة سيرها. لفح نسيم لطيف بشرة وجه رامي. ثم قوي النسيم. صار هواءً أسرع، ثمّ ريحًا، ثمّ عاصفة، وأحسّ بالرذاذ على وجهه. تمسّك بالشرفة من دون أن يخاف أو يهرب.

كان الرجلان يستعدان.

سمع صوتًا ضخمًا لم يستطع أن يصفه حتى داخل الحلم.

 صوت أشبه بـ. .

✖✖✖

تدهورت الأمور، وصار عليّ أن أحمي نفسي. أردْتُ أن أثبت لهم أني لم آتِ لأخترقهم. هذه الحياة مذهلة. يرسلون لي لأشارك في معركة، ثمّ لمّا يلاحظون أني أستخدم اليسير من الرصاص وأني أحرص أن لا أصوّب ناحية أحد، يشكّون. هل أنا الذي أتيت إلى هنا

أصلًا؟ أليس هم من جاؤوا بي؟

مراهقون تفّه! يقفون عند الزوايا، خلف الجدران، ويأخذون يطلقون النيران عشوائيًا. يعرفون بعضهم بعضًا. يعرفون حتى أسماء أخواتهم وأمّهاتهم. ينادي بعضهم البعض الآخر ويجيبون، قبل كل مشط رصاص، وبعد كل مشط رصاص. يقولون: هذه لأختك. وهذه ضعها في مؤخّرة أمّك. أنا رأيتُهم يفعلون ذلك.

عبث.

لكن، ألم تكن الحرب هكذا أيضًا؟ ما لي أنا تغيّرت؟ لا. لا. الحرب كانت غير. الحرب كانت أطول، أزخم، أعنف. الحرب كنتُ داخلها. لا. كانت داخلي. هنا، ما الذي أفعله؟ ما هذا؟ أنا معهم ولستُ معهم؟ أليسوا مصيبين أن يشكّوا بي إذًا؟ لماذا أتيتُ أصلًا؟

في الباحة أمام فندق «كراون بلازا»، وقف الحاج أحمد يتحدّث معهم. انتظرتُ على مقربة حتى انتهى من إرشاداته وتأنيباته. نظرتُ إلى الرقم والعنوان اللّذيْن وشمتُهما على يدي. كان الجلد ملتهبًا. الواشم الحمار ربّما لم يعرف أن ينقشه، أو لعلّه لم يطهّر الآلات. نظر إليّ عندما دخلتُ كأنّه رأى شبحًا وارتبك كأنه كان يفعل شيئًا محظورًا، وأنا الذي قطعتُ عليه فعلته. شرحتُ له ما أودّ وشمه ودفعتُ إليه بالورقة التي تحوي الرقم، حدّق فيها قليلًا ثم طلب مني أن ألحق به إلى الداخل حيث تتم العملية. هناك، أخذ يعرض عليّ نقوشًا أخرى، قال إنّه يمكنه وشمها لتؤطر الرقم. ردّدتُ أنّي لا أريد لا إطارات ولا

زخرفات. الرقم فقط. واصل الشاب إقناعي بلا ملل، حتى استنفذ صبري. وجدتُني أصرخ فيه كما لم أصرخ في أحد من قبل. لزوجتُه نجحت في إيصالي لمثل هذه الحالة، وأنا بدوري كنتُ متوتّرًا.

كنتُ أشعر بأهمية ما أقوم به. لم أوشم جسدي من قبل. كانت هذه محاولتي الأولى، ولم أكن أفعلها للاستمزاج، وإلا لكنتُ اخترتُ من نقوش الشابّ اللزج ما هو أجمل من رقم هاتف وعنوان مكتوبين على طول الساعد.

– لشو جيت لهون؟

قطع سؤال أبو أحمد استعداداتي. نظر إليّ ثمّ إلى ساعدي، ورمقني بنظرة لم أفهم معناها.

– إنت بعتت ورايي أبو. .

هممتُ مجيبًا، فقاطعني أبو أحمد قبل أن أنهي جملتي:

– لا. . إنت فهمان عليي. إنت جيت لهون. لشو؟ الشباب قالولي إنّهن لما عم يعركوها، إنت عم توقف تتفرج.

تنهّد، ثم تابع:

– يا حسن. . ارجاع ع بيتك، إذا ما بدّك. منّك مضطرّ. . بس ما بضمنلك شو ممكن يعملو الشباب بعدين. هيدول من هلأ ورايح رح يستلمو المنطقة.

– شو اللي مش لازم أعملو؟

ضحك أبو أحمد:

– ما هيي القصة كلا إنّك تعمل شي . . مش تقعد تكش دبّان . أنا بعرفك ، بس هيدول عقلاتن شغل إيديهن . تصوّر مثلًا تطلع إنّك فايت لتتجسّس عليهن .

– إتجسس؟

– إيه! تتجسس! شو وين مفكر حالك؟

نظرتُ إلى أبو أحمد ، وأومأتُ برأسي بأني سأتصرّف . ذهب هو ليؤمّ بعضًا من الشباب في الصلاة على الرصيف أمام باحة الفندق ، ومشيتُ أنا مبتعدًا . مررتُ بآخرين يقفون على ناصية قريبة ، يشربون البيرة ويدخّنون ما تبقّى في علب سجائرهم . وقفتُ معهم وضيّفني أحدهم سيجارة . كان يتناقشون حول معركة الليلة .

xxx

دقّ باب غرفة صوفي . نهضت وفتحت الباب . دخل الشّاب في ثيابه الرياضية متفحصًا الغرفة الصغيرة . أقفلت صوفي الباب ولحقت به ، ثم تجاوزَتْه متجهةً إلى الستائر . وبسحبة يدٍ واحدة منها ، أغلقتْها لتغرق الغرفة في عتمة الظهيرة . ثمّ وقفت ناظرةً إلى الشاب الذي رمى شنطته عن كتفه ، وشرع يخلع حذاءه .

– اِنتظر .

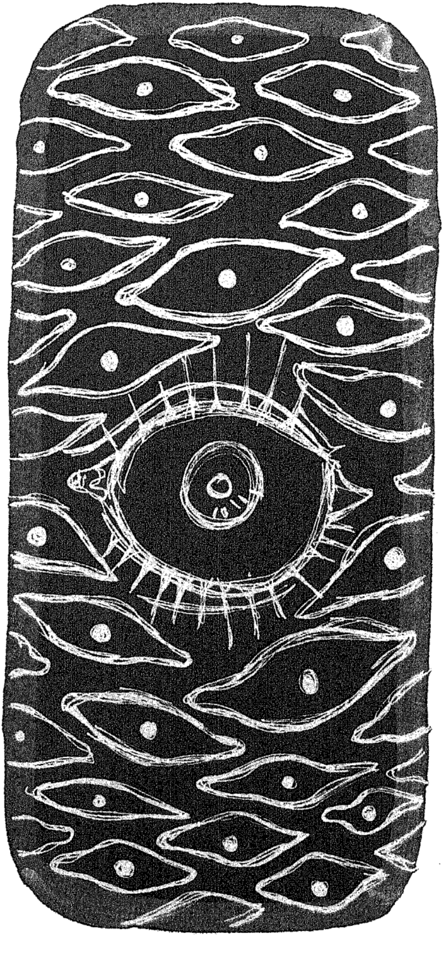

ناظرًا إليها، أبطأ من خلع فردة حذائه، في حركة تدل على انتظاره جملتها الآتية.

– لا أودّ أن أفعل هذا.

أخذ الشابّ يتكلّم بطريقة ألمانيّة نزقة. بدا من لهجته أنّه ليس من هامبورغ:

– لقد اتصلتِ بالنادي. وأنا أجّلتُ موعدًا آخر من أجل هذا.

– لا تقلق. سأعطيك المبلغ المتّفق عليه. لكنّي أودّ أن نتكلّم.

نظر إليها الشابّ غير فاهم.

– هذه مضيعة وقت. لا أستطيـ..

– لا تخَفْ. أودّ التحدّث فقط. لا تقلق. لستُ مخبولة ولا مريضة نفسيّة.

نظر الشاب إليها بالنظرة النزقة ذاتها وواصل:

– لستُ خائفًا. ماذا تودّين أن تعرفي؟

– ماذا تشعر عندما تنام مع إحداهنّ لقاء المال؟

– توقّعتُ هذا السؤال.

– ماذا إذًا؟

– ما من شيء محدّد. حسب الشخص. أحيانًا أحبّ. أحيانًا أشعر. وأحيانًا أخرى يكون محض عمل.

– هل تشعر بالذنب؟

حدّق الشاب بصوفي مباشرةً حتى كادت تشعر أنه يقصد أن ينظر

في عينيها وأطلق سؤاله التالي:

– لِمَ تسألين؟ هل تشعرين أنتِ بالذنب؟

xxx

لو أستطيع أن أروي حكايتي مثل الصوت في بدايات الأفلام التي شاهدتُها في سينما «ستراند». أن أرفِق حركتي في الفيلم بجمل انتظارية من نوع:

«أحبّ القهوة. أحضّرها كل يوم. أفوّرها أربع مرات على الغاز، عند السابعة صباحًا. لكنّي اليوم نمتُ خارج المنزل. لم أشرب القهوة. فقتُ قبل السابعة بساعتين. اليوم كان كل شيء غير. ونهار الغد سيكون أكثر اختلافًا. كيف؟ لا أعرف التفاصيل. ما زلتُ أكتشف».

لكنّ الأمور ليست بهذه السهولة. ليتني فعلًا أحظى بتلك اللحظة. ليتني أستطيع أن أرى نفسي من الخارج. أن أحدّق في أشياء فيَّ لم ألحظها من قبل. يا ليت.

ذلك الصباح، خرجْتُ من المركز الحزبي.

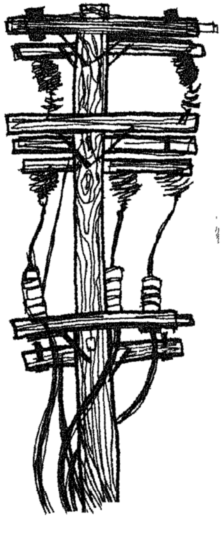

كان كل الشباب نائمين . كنت أفكّر في ما قاله لي أبو أحمد . قبل أن أنطلق ، أزلْتُ الرباط عن وشمي ، ونظرْتُ إليه . كان لا يزال متورّمًا على طول الرسم ، مضيئًا كأنه يودّ أن يفصح عن شيء .

مشيتُ في الحمراء ، وأنا أتثاءب . حملْتُ سلاحي على كتفي . لأوّل مرّة ، أحسستُ به ثقيلًا . أخذتُ أدور في حلقات لا تنتهي . أخرج من شارع جانبي عمودي على شارع الحمراء الرئيسي ، أمشي قليلًا في الشارع ، ثم أدخل شارعًا آخر عموديًّا وأعيد الكرّة . كنتُ أطيل مسافاتي ، وأبحث ، ولم أكن أجد شيئًا .

حدّثتُ نفسي . تذكّرْتُ وداعي لرامي في المطار قبل سنين . كم مضى على ذلك؟ أشعر أن هذا حدث منذ زمن سحيق ، ورغم ذلك يبدو لي أنّ الزمن يركض . كأنه سافر البارحة .

١٦٧ عندما آتاني بورقة القبول في الجامعة فرحْتُ ، ولم أفصح . لن يبقَ أسير غرفته . لن يتعذّب في الخارج كما حصل معه هنا لسنين . هنا لا يفهمون . هنا يُشفقون . كان الأمر صعبًا على رامي ولم يحتمله . لكنه مع فَرَحِه برسالة القبول ، كان يشعر بالذنب . أخذ يحدّثني عن ماما . أنا الذي كنت أستمع ، ضربني الصمت للحظات . غبْتُ في دنيا أخرى ، ثم عدتُ في لحظة واحدة معلنًا فرحي له . قلْتُ:

– سافِرْ .

نظر إليّ كأنه يتحقّق من الأمر ، فأعدْتُ له جملتي الآمِرة:

– سافِرْ . إيمتى لازم تكون هونيك؟

وهكذا طار رامي، وانحصر تواصلنا بالاتّصالات الهاتفيّة. لكنّني مع مرور الوقت، كنتُ أشعر أن شيئًا ما ليس على ما يرام. ذات مرّة، مازحته. سألتُه:

– عم تحبّ؟

هزأ من نفسه. قال:

– مين ممكن يحبّ حدا متلي؟

لم تفاجِئني الجملة. كنتُ أنتظرها منه ذات يوم. لكنّها أعادتني أعوامًا، إلى كرسيّ مقهى بحريّ جلستُ عليه قبالة ليلى. أنا استخدمتُ الجملة نفسها معها. قلت لها:

– ليش واحدة متلك بدا تحبّ واحد متلي؟

ابتسمت ليلى ولم تجِب، لكنّها طلبت مني أن أوقف تفاهتي. حدث هذا قبل أن تُخطَف وتختفي. لن أجدها بعدها. بعد سفر رامي بفترة قصيرة، وقفتُ في نقابة الصحافة مع ذوي المخطوفين. أخذتُ أفتّش في الصوَر الملصقة على الكراسي عن صورة ليلى. هل وضعها أحد هنا؟ هل يتابع قضيتها أحد؟ كنت أفكّر من دون أن أخاف أن يتعرّف علي أحد الموجودين كمسلّح سابق. أنا لم أمارس الخطف. كنت أقول إنّ الخطف شيء، والقتل شيء آخر. في الاشتباكات لا تعرف من قتلت، حتى وإن مرَرْتَ قرب الجثث. لن تعرف أنك أنت من حوّلْتَ هذا الشخص جثّة. الأمر عرضة للشكّ دائمًا. أمّا المخطوف فيبقى أمامك. ترى وجهه، وعندما تصفّيه تكون قد قتلت

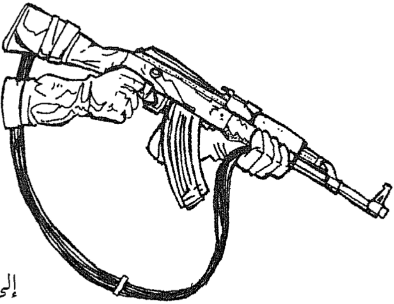

وجهًا رأيته. أنا كنتُ أقول إنّي أدافع وأحمي فقط، وإنّي دُفعْتُ إلى كل هذا.

وأنا أفتش بعينيّ عن صورة ليلى على الكراسي، عزمتُ أن أحمي رامي. قلتُ لنفسي أني سآتيه بالحبّ، وفعلت.

هذه المشاهد مرّت أمامي وأنا أمشي في فجر ذاك النهار. في حجارة شارع الحمراء الناتئة رأيتُها كلها، ظلَلْتُ أنوء تحت ثقل السلاح الذي أخذ يزداد، حتى وصلتُ آخر الشارع. هناك وجدتُ الشاب يرسم على الحائط. عرفتُه. رأيتُه في شارعنا أكثر من مرّة. وهناك، استولَتْ عليّ الفكرة من جديد. سأحمي نفسي هذه المرّة. لن أخطف. لن أؤذيَه. سأتي فقط بالشاب إلى أبو أحمد. وسأثبت ولائي بهذه الحركة. أصلًا، أنا أحمي الشاب بإخراجه من هنا. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث إن رآه أحد التافهين.

وقفتُ موجهًا سلاحي باتجاهه وقلتُ جملتين أو أكثر قليلًا. لا أذكر الجملتين. غريب أني لا أذكرهما. الشاب لم يتكلّم. نظر إليّ وإلى أغراضه، ولم يتكلّم.

ما الذي حدث بعدها؟

حدثت الأمور بسرعة من دون أن أعيها. وعَرفْتُ فقط أنّي متّ لمّا وَجدْتُني اكْتَسَبْتُ اللّغة. تيقّنت من موتي لمّا عثرْتُ على صوتي الخاص، هذا.

❊❊❊

قبل أن يعرف إن كانت الموجة قد أغرقَت المدينة الجديدة، أيقظه الصراخ من الشارع. في الثواني القليلة التي تلت استيقاظه، لم يقدر رامي أن يستعيد حلمه. عرف أنه حلم، ويعرف أنه قد يتذكّر بعضه فيما بعد كعادته، لكنّه كان مهتمًا بأن يُسرِع في استعادة رؤياه. كان واثقًا أنه لم يرَ حلمًا كاملًا. كاد أن يسأل نفسه: هل تستكمَل الأحلام؟

حضّر قهوته وطرد أفكاره، وابتسم أمام الغاز. تذكّر أنه سيذهب مع صوفي إلى السينما اليوم. ثم فكّر أنّ كل شيء سيكون على ما يرام..

اليوم، وغدًا، وبعد غد.

رسم الفصل التالي: محمد جابر

اللحظة الفارقة

هذه حكاية حبّ لم يُحكَ بعد.

Pause

سناء، هكذا أرى حكايتنا. لم أحكِها لكِ ولم تحكِيها لي. انسابت القصّة بتفاصيلها، ولم نتوقف لنسأل ما الذي حصل. لم نكبس زرَّ Pause مثلًا ونعد إلى الوراء لننظر. لم نبتعد عن الصورة لنستطيع مساءلة أفعالنا. هل كان هذا خطأنا الحاسم؟ أفتّش عن ذريعة، عن سبب، ولا أجد. ألا يجب أن يكون هناك سبب واضح وراء ما حدث؟ يجب؟ يجب، أم هذه رغبتي؟ هل يجعل السبب الواضح الأمور أوضح وأسهل؟ أم يصعّبها؟ وهل من فرق؟ ثمّ، هل يشتهي أحد الصعوبة وغموض الأسباب؟ ربما. لكني من المؤكّد لستُ منهم ولا نعرف أحدًا منهم، وأظنّ أنك توافقينني.

أقول «أظنّ» لأننا افترقنا. وفترة ما بعد الفراق، أظنّ أيضًا، لا تعود تحتمل التأكيدات. إذْ لو كان اليقين يقينًا، هل كان الفراق ليقع؟

هل الأمر بهذه السهولة العلميّة؟ لا أعرف. لعلّ الأمور كلها تحتمل الصعوبة وأنا الذي أعاند؟

بعد فراقنا، خضتُ في عراكات غير ذات معنى مع أمي وأبي، ومن بقي من أصدقائي قلّة. كثر لم أكن قد رأيتُهم منذ زمن. انتبهتُ أني، لمّا كنّا معًا، اعتزلت العالم. من بقوا أصدقاءنا كانوا معدودين، وشعروا بالحرج عندما تركنا. مع من يتحدّثون؟ معكِ أم معي؟ في البدء كانوا يروننا نحن الاثنين على حدة، لكن بعدها، أظنّ، بدأوا يشعرون بالغرابة، تمامًا مثلي. ولأوفّر عليهم الحرج، طلبْتُ منهم أن يذهبوا إليكِ، وأن لا يدعوني لجلسة تكونين فيها.

وددنا أن نكون «حضاريين» عندما تركنا. طلبتِ أن نبقيَ على أحاديثنا. اعتذرتِ عن الجملة المغرقة في الكليشيه: «خلينا نضلّ أصحاب»، وبررتِ بعدها: «مش هيك». قلتِ أنّكِ فعلًا لا تريدننا أن نتوقف عن الحديث. وأنّك تنزعين الضغط من علاقتنا.

طلبتُ منكِ أن تعطيني فترة يوم. «٢٤ ساعة»، قلت. نظرتِ إلي وقلت إنّك تفهمين ما أعنيه. لكنني استطردت فورًا لما فهمت ما اعتقدتِه، وقلت إنّي لن أهرب. «٢٤ ساعة بس، وبعدين منشوف».

عندما التقينا ثانيةً لم أقل لكِ ما فعلت في الساعات الأربع وعشرين، ففي الفراق، رغم الكلام، لا نشعر بأنفسنا مرغمين على أن نتشارك كل شيء. في الفراق، يبدأ النقصان، وتصبح الأحاجي عاديةً إن لم تحلّ وتكتمل. يتطبّع الاهتمام واللا اهتمام.

وتلك كانت خطوتي الأولى الناقصة.

٢٤ ساعة

- المنظر حلو من فوق.

قلتها لك في المرة الأولى التي صعدنا فيها إلى سطح بناية. كان ذلك في شقّتي الأولى قبل أن أنتقل للحمرا، في زقاق البلاط.

ارتقينا الدرج درجة درجة، ولحسن حظنا، كان باب السطح مفتوحًا. فوق، وجدنا أقفاص حمام. انتفضت الطيور فجأة عندما دفعنا الباب. طارت في السماء كأنها دُفِعَتْ من رقّاص حديدي، ثم حطّت مجددًا قرب بيوتها الخشبية. اقتربتِ أنت منها، فلم تهرب. حملتِ واحدة، وأريتِني إياها. قلتِ إنّ عينيها غير.

رغم إرسائنا لتقليد صعودنا إلى أسطح البنايات في رأس بيروت، ظللتُ أذكر صعودنا الأول. كيف وقفنا ننظر إلى البعيد، وسادت بيننا فترة من الصمت لم يكن يقطعها إلا صوت الحمام الغريب. كانت فترة الصمت تتكرر كلما تشاجرنا حول أشياء تافهة، ما جعلني أعتقد أننا كنا ننظر إلى البعيد فقط عندما نختلف. لكن هل كنّا نرى أشياء أخرى؟ هل كنا نقترب من تلك اللحظة الفارقة التي طلبتِ فيها أن نوقِف كل شيء؟ أم كنا فقط نرى ما كان أمامنا من دون الإيغال في الأسئلة الوجودية التي كنتُ أعتقد أن صمتًا كهذا يفرضها؟

كنا نقف لحظات الغروب، ونترك أعيننا لبراح المشهد. كم غروبًا

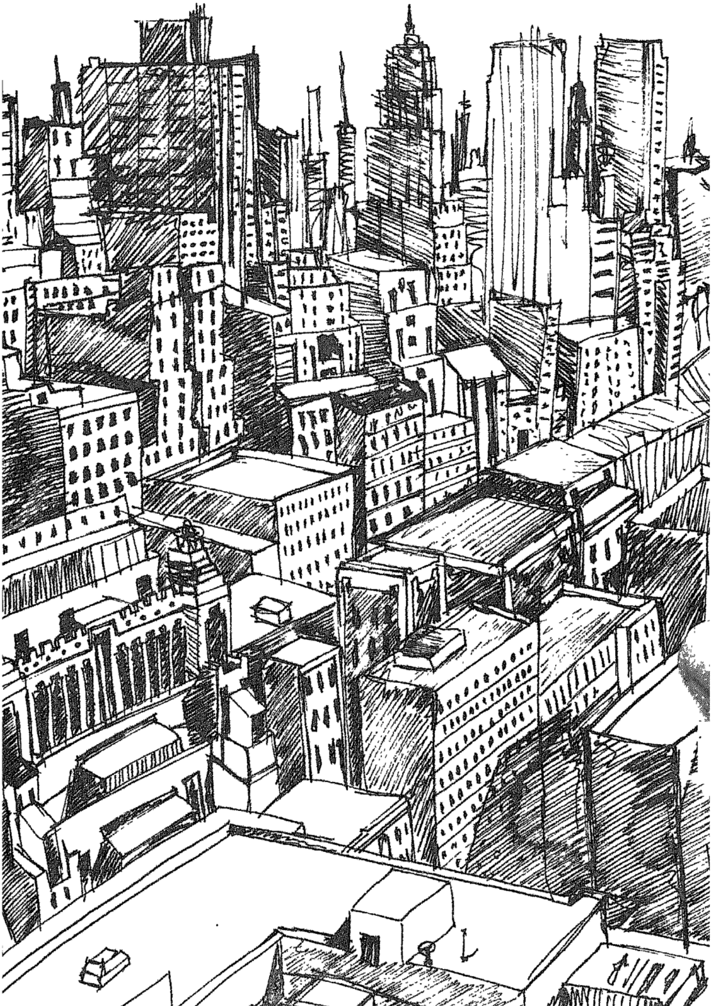

شهدنا معًا يا سناء؟ ولماذا أذكر هذه التفاصيل، وأنا لا أملك إجابة؟ العقل يتصرّف بطريقة غريبة. هذه كلماتك. أنتِ قلتِها ذات مرة.

في الساعات الأربع وعشرين التي طلبتُها منكِ، رأيتُ أكثر من غروب. أخذتُ أصعد وأنزل البنايات المتلاصقة في ذلك الشارع المنحدر في كاراكاس. أصعد بسرعة، وأنزل بسرعة. لم أكن آبه بملابسي التي التصقت بي من كثرة العرق الذي أفرزته مسام جسدي. لم أكن أشعر حتى بلهاثي. كنتُ أقف في السطح، أشاهد الغروب لثوانٍ، ثم أنزل وأنطلق إلى بناية أخرى وسطح آخر.

كل سطح كان يريني غروبًا مختلفًا. بل ليس السطح. أنا الذي كنتُ أرى. أنا الذي كنتُ أوهم نفسي أني أرى.

في الساعات الأربع وعشرين، أنهكتُ نفسي بالنظر للبعيد. كنتُ أحاول أن أفهم أين اختلفنا، ولم أكن أجد شيئًا. ثمّ ما لبثت أفكاري هذه أن تلاشت لصالح فعل هستيري. صعود الأدراج ونزول الأدراج، حتى غياب الشمس واسوداد السماء. حينها فقط استلقيت على أرض السطح، الذي لا أذكر الآن مكانه ويبدو لي هذا غريبًا، ونظرتُ إلى النجوم.

سمعتُ لهاثي كما لم أسمعه من قبل، وخيّل لي أن نبضات قلبي تضخّمت، وأنني أموت. ثمّ قلت إنّ هذا ليس صوت قلبي فقط، بل هذه النجوم تحاورني في ضياعي، وربما عليّ أن أغفو لأفسح لها المجال لتحدّثني.

في لحظات قليلة قبل أن أنام ناظرًا إلى السماء، قررتُ أن أراسلك يا سناء. لم أكن مهتمًا في أن أرسل لك الرسائل. كنتُ بدأتُ أخلقك أمامي وأكلّمك. ربّما بدأتُ كتابة الرسائل في رأسي حينها، عندما عبرت الفكرة خاطري. وهكذا، أخذتُ أرتجع كلّ شيء: ما شعرْتُ به تاليًا وما مررتُ به قبل طلبك، وبدأتُ بخطّه في ذاكرتي بالقرب من الأسماء العلميّة الطبّيّة التي لطالما جهدتُ في حفظها.

وثقتُ أنّ هذا سيفيدني، ولم أعرف كيف.

قبل أن تطلبي بيَوم: كيف شعرْتُ

هوَ الحزن، ما شاء فَعَل.

كنتُ في المستشفى، أغلق الباب على جسد ميت جديد في البراد. قبل عشر دقائق، وصلت أجساد طازجة من غرف العمليات. كان اليوم كئيبًا. هذه المرة الأولى منذ زمن نستقبل فيها هذا العدد من الموتى. ساعدتُ رفاقي من المتدربين الجدد والقدامى. استلمنا الجثامين، وأخذنا نضعها في البرّادات. كالعادة انهار أحد المتدربين الذي كان في يومه الأول، وكالعادة استغربت. لم أفهم يومًا كيف ينهار أحد أمام الموت. منذ أيام الجامعة، منذ اللحظة الأولى التي قتلتُ فيها الضفدع الأول وشرّحتُه، وَسَمتُ هذا الانهيار بالغرابة. وتأكد لي بعدها عندما دخلنا المشرحة للمرة الأولى في التدريب الجامعي. يومها انهار أكثر من تلميذ، واستفرغ البعض، وهرب آخرون إلى الرواق،

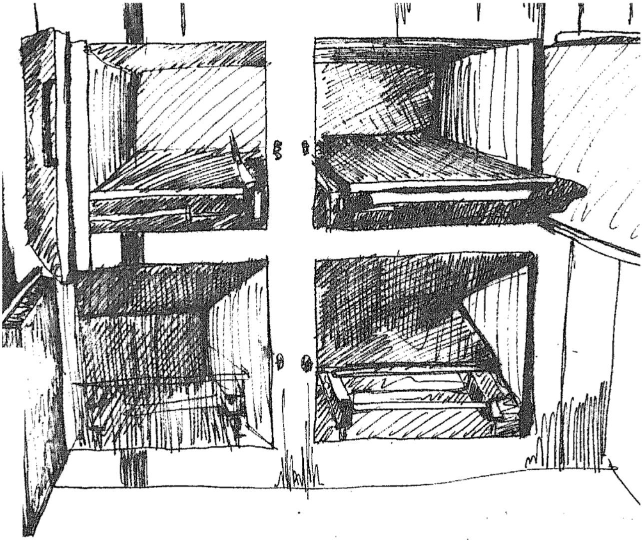

وصمد آخرون بتوتّر بدا على محياهم. سأكذب إن قلت أني لم أتّوتر للحظة، لكن عندما طالب الدكتور بمتطوّع منّا ليقترب ويمسك يد الميت، تقدمتُ أنا بلا تردّد. اختفى توتّري في لحظة، ونفّذتُ الطلب. ١٨١

تذكّرتُ هذا المشهد، عندما أدخلتُ الجثة الأخيرة. قبل أن أغلق باب البرّاد، توقّفت لدقائق ونظرتُ إلى سواد العتمة، إلى الثقب الأسود. للمرّة الأولى منذ تدريب الجامعة، شعرتُ بالتوتّر وبالغرابة. لستُ أكيدًا إن كان التوتّر والغرابة هما الكلمتان الصحيحتان لوصف شعوري. لعلّ ما أحسستُ به كان أقرب إلى الحزن المفاجئ. هذا الذي يظهر كطيف، يأتي سريعًا ويمشي سريعًا، ويترك وراءه اللا فهم، فلا تعودي تعرفين يا سناء إن كنتِ سعيدة أم حزينة. كانت الحياة لتكون أسهل بكثير لو كان غياب الحزن يعني السعادة. لكنني أعرف الآن أنّ

الأمور لا تجري على هذا النحو. أمام باب البرّاد، لم أشعر بشيء على الإطلاق. هل أسمّي ذلك خدرًا؟ لا. ليس خدرًا. أنا كنت أكترث في تلك اللحظة، ولذلك اخترتُ أن أسمّيه، بسرعته هذه، حزنًا مفاجئًا.

تلك الليلة كنت أكيدًا. وثقتُ في حزني. شيءٌ ما حدث، قلتُ. وكنتُ على حق.

الاختيارات

في النهار التالي، فقتُ بهواجس ستظلّ معي لوقت طويل. حتي إنّي الآن، وأنا أكتب هذه الجملة، لا أزال أحمل بعضها. لماذا نختار؟ لماذا اخترتُ مثلًا أن أحبّك؟ ولماذا اخترتِ أنت الخيار نفسه؟ لماذا التقى هذان الخياران؟ كان من الممكن أن نختار، وأن لا يجرؤ أحدنا على مصارحة الآخر، فتبقى اختياراتنا ظنونًا تحتمل النجاح والفشل. لكن هل لو اخترنا، سنتوقف عن الظنّ؟ من قال ذلك؟ ها أنا أظنّ أن شيئًا ما حدث. هل حدث شيء فعلًا، أم أن شيئًا لم يحدث قطّ، وأنا الذي فقط كنتُ أظنّ، ثمّ بنيتُ كل خياراتي على فكرتي هذه؟ أليس هذا ممكنًا؟

ماذا في الخيارات؟

نحن البشر نختار لأننا نظنّ أن خياراتنا قد تجعلنا أكثر سعادة. نقول «قد» علنًا، لكننا نكون نشتهي السعادة ضمنًا. نكون أكيدين في داخلنا أننا اخترنا الخيارات الصائبة. نجزم في الباطن، ونموّه كلامنا

في العلن. نُخبر آخرين عن خياراتنا بعلميّة، ونقول إنّ الجزم باتخاذ قرارات يقابلها احتمالات متناقضة بنسب متفاوتة لا نعرفها. أنا أجد الأمر برمته غريبًا، وغير عادل. لماذا لا نحظى بتلك الثقة التي تجعلنا نجزم بصوابية قراراتنا في العلن ومن دون أن نجنح للإدعاء الفارغ؟ لماذا لا نفعل ذلك ويبدو معنا طبيعيًا وليس متطرفًا؟ ألم يكن ذلك ليعيننا على الكثير من الصعوبات؟ ولماذا على الاختيارات أن تكون أيضًا صعبة، وتخضع لشبكة معقدة من كمية مهولة من العوامل؟

ذلك النهار، وأنا أصدّع رأسي بهذه الهواجس، قررتُ فجأة أن هذا كله سفسطات، كما قلتِ لي مرّة يا سناء. يومها طلبتِ منّي أن أتوقّف عن الافتراضات، وأن أتعامل مع الأمور بسلاسة وسهولة أكثر. طلبتِ مني أن لا أستنزف طاقتي على شيء لا يستحقّ، وأن لا أراكم طاقةً سلبية بلا سبب. كانت تلك أولى الملاحظات منك. أنتِ لم تكوني تقولين لي شيئًا من هذا القبيل قبل ذلك. حتى إنكِ غضبتِ وأنت تشرحين نظريتكِ، فسألتكِ مستغربًا:

– شو في؟

مسحْتِ على جبينك وقلتِ:

– ما شي.. الجامعة.. أنا بس موتّرة شوي.

نظرتُ إليكِ لحظة ثم تركتُك في الغرفة، وخرجْتُ إلى الترّاس.

لا أعرف إن كنت تتذكّرين. أنا أذكر تفاصيل تلك اللحظة، وفكّرت فيها طيلة أسبوع. ذاك الأسبوع نفسه الذي توتّرتُ فيه أمام

الجثّة. كل هذا حدث في سبعة أيام. رفعتُ خليويّي عندها، واتصلتُ بكِ. كان خطّكِ مغلقًا، فقررتُ أن أخرج. أخذْتُ ريكس لأمشّيه في شارع الحمراء. نبح فرحًا عندما فككتُ رباطه من العمود في الترّاس. هل كان يعتقد أنه سيراكِ؟ ربما. أنا أعلّم نباحه. وهو اعتاد كلما فككتُ وثاقه في مثل هذا الوقت وأنزلته ليتنزّه، أن يلتقيك.

أخذ ريكس يشدّني وراءه. كان منطلقًا أكثر من كلّ مرّة. على الدرج، وفي مدخل البناية، وعلى الرصيف، وفي الشارع، مشى ريكس، ولحقتُ به من دون أن أفكّر. أخذ يهرول وأنا ألجمه محاولًا التخفيف من سرعته، ثمّ توقّف فجأة والتفت إليّ وأطلق صوتًا غريبًا، ولّما نظرتُ حولي وجدتُني عند المدخل الخلفي لحديقة الصنائع، حيث كان لقاؤنا الأوّل.

اتصلتُ بكِ مرة أخرى، لكنّك لم تردّي.

حزن الزمن منعكسا على الأشياء

عندما وصلنا الحمراء، كان ريكس قد بدأ يشعر بالإنهاك. صار يمشي ببطء. وافق تعبه مزاجي. قطعتُ تقاطع «جاكجونز – فيرومودا» وجلستُ على درج الدومتكس بعد أن ربطتُه بعمود الكهرباء. مرّ طفل مع أمّه وابتهج عند رؤية الكلب مضطجعًا على الرصيف، ثمّ قام ريكس ورفع رأسه ليستطيع الولد أن يضع كفّه عليه.

تركتُه مع الولد وأمّه. كنتُ أنظر باتّجاههم من دون أن أراهم.

كان الثلاثة شفافين. تعدَّتهم نظرتي باتجاه مسرح «البيكاديلي» ومحل الألبسة بجانبه. حتى إنّ المسافة اقتربت وباتت أقصر. هذه ليست المرة الأولى التي تحدث لي. أنتِ تعرفين يا سناء كيف كنتُ أشرد فأنقطع عن كلّ شيء إلاّ ممّا أودّ التركيز عليه.

فكّرت أننا نعيش انعكاسات حزن الزمن على كل الأشياء. الواجهات الزجاجية القليلة في المحلات التي تناثرت حول التقاطع كانت تقول لي هذا. الشارعان المتقاطعان قالا لي الشيء نفسه. الطريقة التي ينهمر فيها سيل السيارات نزولًا من «البيكاديلي» أو مرورًا قربي في شارع الحمراء الرئيسي، قطط أسفل السيارات التي لم أرها لكن متأكّد من وجودها في الشوارع المحيطة، حتى كلاب بيروت المكتئبة الشريدة التي صادفتُ.اثنين منها وأنا أمشّي ريكس، وضوء أعمدة الكهرباء الخافتة في بداية المساء، والأسلاك التي تقطّع أي رؤية للمغيب. كل هذه التفاصيل كانت تشهد لي على انعكاسات حزن الزمن على الأشياء. زمني أنا. نعم قلتُ حينها في عقلي «زمني أنا»، يا سناء، وفجأة انتبهت وخرجت من شرودي. كان خليويّي يرنّ وكنتِ أنت من تتصلين. نزلتُ عن الدرج ووقفتُ على الرصيف بالقرب من ريكس.

ازدحم التقاطع فجأة، وتوقّفت سيّارة قبالتي في الطريق. كان زجاجها داكنًا لا يُري من في داخلها. حدّقتُ للحظات في صورتي المنعكسة على زجاج النافذة، وعندما تقدّمت السيارة بعيدًا، سألتُ

نفسي: هل كان من أحد في المقعد الخلفيّ من السيّارة؟ وهل نظر إليّ من دون أن أراه؟

الساعة الجديدة.. الوقت الجديد

الحياة تدركنا أينما كنّا. في عزّ «سعادتنا»، أدركتنا. أحيط الألفاظ بمزدوجات لأني لم أعد أعرف إن كنا نعمنا بالسعادة فعلًا قبل لحظتنا الفاصلة التي أحاول، ولا أقدر، أن أحددها، أم لا. أستخدم لفظ الحياة هنا في معادلة جديدة: الحياة باتت عندي نقيضًا لكل هذه الأشياء الواضحة. الحياة في مجموعها، أقصد. ما أعرفه فقط أني لم أكن حزينًا، وربما كنتُ مستمتعًا في أوقات، لكن هل يعني ذلك أننا كنّا سعداء؟

أعدتُ ريكس إلى التراس ونزلتُ أمشي قبل موعدنا. اتّجهتُ نحو المكان باكرًا، وكنتُ أبطئ الخطى. أخذتُ من جديد أتفرّج على الواجهات. ولاحظتُ أنّني توقّفت فقط أمام الواجهات التي تُعرَض فيها ساعات الأيدي. لعلّي أحبّ الساعات؟ أنا الذي لم أشترِ ساعة معصم يومًا، هل اكتشفتُ حبّي للساعات في الطريق إليكِ؟ **١٨٧**

دخلتُ واشتريتُ ساعة. لبستُها في معصمي، وعدّلتُ الوقت. أحسستُ بتكّاتها على جلدي. ثمّ صار الوقت يمشي بطيئًا قبل موعدنا. درتُ كثيرًا وأنا أفكّر، فنبرتك على الهاتف كانت مختلفة، وكنتِ تجيبين عن أسئلتي باقتضاب وتنزعين منها أي لهفة ما جعلني

أردّ بالطريقة نفسها.

كانت هذه المرّة الأولى الذي أنتبه لهذا الاختلاف. لم أنتبه له قبلًا. وأخذتُ أتيقّن من شكوكي وأحضّر نفسي لذلك الشيء المبهم. هل كنتُ أعرفه؟ ربّما. ربّما لكني لم أكن أفكر به على الإطلاق. نفيتُه من عقلي. لحقتُ بنصيحتك الأثيرة ولم أثقِل نفسي بالأفكار.

من الحمراء انزلقْتُ باتجاه البحر، ثم باتجاه وسط البلد. كان اختيارك للمكان غريبًا، فهذه الأرصفة التي تمتد من وسط البلد للسان جورج تخلو من المشاة في هذا الوقت من النهار، مقارنةً بأرصفتنا المعتادة في المنارة أو الروشة. زاد هذا من خوفي وهواجسي التي كنتُ أحاول طردها. كان بإمكاني أن أصعد في تاكسي لكنّي اخترتُ أن أمشي. صرتُ وأنا أخطو أطيل النظر في شكل حذائي. وجدتُه غريبًا ولم أفهم لِمَ اشتريتُ هذا الحذاء. فهمتُ فجأة سبب تندّرك الدائم حوله.

كان الحذاء غبيًا فعلًا. طرفاه مقوّسان قليلاً إلى الداخل، وكعبه صلب وسميك، أما لونه فبهت بما يضيف إلى غبائه الأصلي غباءً جديدًا. في رحلتي إليك، وجدتُ سرب نمل مسرعًا يمشي بانتظام على بلاط الرصيف. توقّفتُ، ونظرتُ إلى حركة القافلة. لم يكن النمل منشغلًا عن حركته بشيء. حتى اقتحام حذائي لِخَطّ سيره لم يثنِه عن متابعة طريقه. حوّلت القافلة مسارها حول الحذاء بسلاسة واستمرت متجهة نحو ثغر الجدار. لا أذكر كم من الوقت بقيت أنظر إلى حركة

الحشرات، لكني عندما رفعتُ يدي ونظرتُ للمرة الأولى، فعليًا، في ساعة المعصم الجديدة، وجدتُ الوقت يقترب. تأكدتُ أن الزمن على الأقل يمشي.

وفكّرتُ: لعلّ هذا الاكتشاف يخفف من وطأة ما أنتظره؟

كنت من ناس الإجابات

تعرفين ناس الإجابات؟ أنتِ كنتِ منهم يا سناء. على الأقل في البداية. من هم ناس الإجابات؟ هم أولئك الناس التي لا تطرح وجوههم أيّ أسئلة، فترينها رائقة. توحي بالأمان. أكثر من ذلك. لا تكتفي وجوههم بنفي الأسئلة فحسب، ولكن تزدحم أيضًا بالإجابات، فتعرفين عند النظر إليها أن أسئلتك مُجابة، وأن فعلك لن يصطدم بردّ فعل مضادّ. وتصير علاقتك معهم ساحرة كسحر الغوص في بركة آمنة بلا تيّارات.

لكنّ هذا كان قبل أن نلتقي ذاك اللقاء. هذا كان قبل وعد الـ ٢٤ ساعة. هل استخدمتُ فعل «كان» في حديثي؟ دعيني أنظر. نعم. هاكِ: «أنتِ كنتِ منهم يا سناء». كنتِ. هل كنتُ أعرفك فعلًا؟ هل عرف أحدنا الآخر؟

وقد أتمادى فأسأل: هل يعرف أحد في الدنيا الآخرين؟ وإن لا، فلِمَ يصل البعض إلى مرحلة الملل؟ ولماذا لا يجدون أيًا من المواضيع ليتكلموا فيها؟ لماذا تختفي القصص عندهم؟

كنتُ دائمًا أنظر إلى صورتكِ ثابتةً على شاشة الخليوي، أو عندما تظهر لمّا أتصل بك أو يتصل بي أحد الغرباء الذين لا أملك لهم صورًا في ذاكرة تلفوني. الأمر غريب. فكّري فيه على هذا النحو:

أنت كنتِ تظهرين أمامي على الشاشة عدّة مرّات:

١- على الشاشة عندما أقفل خليويّي.

٢- كصورة حائط دائمة وراء التطبيقات.

٣- لمّا تتصلين بي.

٤- عندما يتّصل أحد بي رقمه غير مسجّل في ذاكرة الخليوي.

أنتِ إذًا في الاتصالات كنتِ أكثر من شخصيّة وامتلكتِ أكثر من معنى: الإغلاق، الثبات، أنتِ، الغرباء.

١٩٠

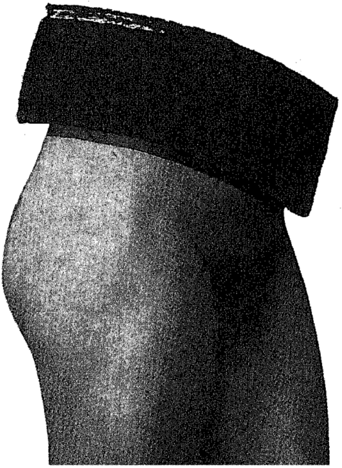

لكن ما الذي حدث بعد ذلك اللقاء؟ لم تعد الأمور واضحة؟ لم يعُد وجهك يطالعني بالإجابات؟ هل فعلًا بتِّ أنتِ والغرباء واحدًا؟

اللقاء: لمّا لم تشرحي لي

عندما ترجّلتِ من التاكسي، نظرتِ إليّ نظرة خاطفة، ثمّ حاسبتِ السائق وخَطَوْتِ المسافة القليلة بتجاهي وأنتِ تنظرين إلى الأرض أو تنشغلين بشيء ما في حقيبتك. كانت المرة الأولى التي تفعلين فيها هذا معي. أنا بقيتُ واقفًا في مكاني ولم أقترب. قبّلتِ وجنتي قبلة خاطفة وقلتِ «هاي» ثم تقدّمتني ماشيةً فلحقتُ بك.

الرصيف واسع، بلاطاته غريبة تختلف عن بلاط رصيف الروشة. الرمل ينتشر في مطارح غير مرصوفة. البحر يُرصَف قريبًا من هنا. خلال النهار، تمرّ الشاحنات من هنا أكثر من مرّة. حتى قرابة المساء تمرّ. تنقل رملًا وأحجارًا ضخمة. الفنادق ترسل أضواؤها العلويّة باتجاه السماء في بداية المساء. وأكثر من مبنى بمحلات فارغة من الزائرين، وكثير كثير من السيارات التي تعدو في الطريق ثم تتوقّف فجأة عند الإشارات.

كل هذا رأيناه ونحن نمشي معًا. أنا رأيتُه. لا أعرف إن كنتِ رأيت أشياء أخرى، لكننا مؤكد أنّنا لم نكن ننظر أحدنا إلى الآخر. عندما وصلنا إلى «السان جورج»، اختفى الرصيف. مشيتُ من جهة الطريق، وأمسكتُ يدك. كان إمساكي بيدِك على هذا النحو غريبًا،

فنحن رغم أننا كنّا ننام معًا، لم يمسك أحدنا يد الآخر يومًا، لا عند قطع طريق، ولا كحركة يقوم بها حبيبان مراهقان. نحن لم نكن هكذا، أظنّ.

مشينا قليلًا حتى وصلنا إلى رصيف كورنيش عين المريسة الواسع، هناك أفلتِّ يدي متذرعةً بصعودنا الرصيف. لمّا فككتِ أسري، شعرتُ بعرق الدنيا على كفي يترطّب برذاذ البحر. بقينا نمشي من دون أن نتكلّم، وزاد ذلك من توتّري. كان من الممكن أن نبقى لنهاية لقائنا صامتيْن، لولا أنني قررت أن أكسر الصمت المفروض.

– قهوة أو هوت شوكليت؟

هززتِ برأسكِ أن لا هذا ولا ذاك، وقلتِ:

– ما شي.

– هيك هيك أنا بدي جيب. شو بتاخدي؟

صمتِّ لحظة ثم سألتِ:

– ببيعو سميرنوف؟

عندما قطعتُ الطريق أخذتِ تنظرين إليّ. أعرف ذلك من دون أن تقولي لي. ولمّا انتظرتُ المشروبَيْن أخذتُ أحدّق فيكِ من بعيد، وأنت تديرين ظهرك وتمسكين الدرابزين، ولعلّك أيضًا تعرفين ذلك، يا سناء.

ثم عدتُ بالكوبين، ووقفتُ جنبك. أخذتِ تركّزين في البحر. حتى إنّك تحدّثتِ من دون أن تنظري إليّ. وفعلتُ أنا الشيء نفسه.

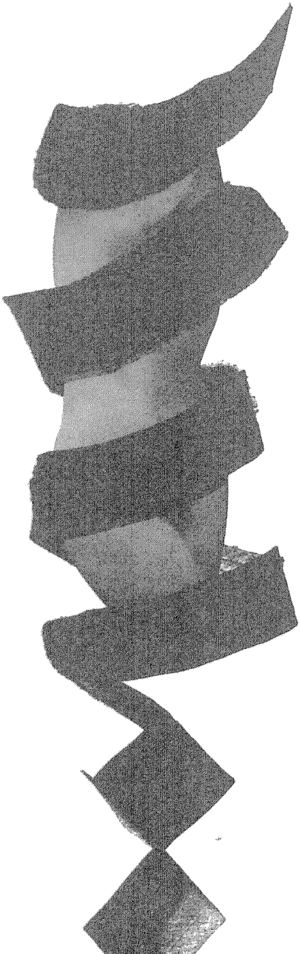

وكان أن خسرتُ الكثير من كلامك. أو لعلّي لم أسمعه. كنتُ أركّز في البحر لأتفاداكِ. أتذكّر فقط أنك قلتِ إنّك ستسافرين من أجل الدكتوراه وإنّك تودّين أن تتأقلمي مع فراقنا قبل ذلك، وإنّ شيئًا بيننا لم يتغيّر، لكنّها الظروف فقط، وعلينا نحن، كناضجين، أن نحاول الابتعاد عن الضغوط الشعورية التي قد تهشم هذا النضج، والأحداث الصادقة التي عشناها معًا.

كنت تتحدثين عن «صدق» ما كان بيننا، وطلبت عندها أن نبقى نتواصل كصديقين. عرفتُ حينها أن الأمر قد قضي، واكتفيتُ بالابتسام. قبل أن نفترق، وأنا أوقف لكِ تاكسي، طلبت منك أن أعانقك. «فيني أعبطك؟». نظرتِ إليّ للحظة، في المسافة القريبة بيننا أجزم أنني رأيت دمعة محبوسة في مقلتيك أكدها صوتك المخنوق الذي أجبت به: «أكيد».

وتعانقنا لثوانٍ، من دون أن نحني رأسينا على كتفينا.

أنا وبيروت في المرآة

عندما أصعد مع سائق سرفيس، أحرص أن أجلس في المقعد الخلفي وأن لا أتحدّث. هذه المرة فعلتُ العكس. ناديتُه «تاكسي»، وصعدتُ إلى المقعد الأمامي.

– لوين إستاذ؟

– ع مستشفى الجامعة. بس مرقنا عالكورنيش لآخره بالأوّل. اذا ما

فيها تقلة.

– البنزين غالي يا إستاذ.

– رح إدفعلك زيادة. ما تخاف.

انتظرتُ السائق أن يحدّثني. ففي بيروت، الصعود إلى المقعد الأمامي في سيارة سرفيس فارغة إشارة إلى حميمية كلامية ينتظرها الراكب من السائق. لم يمضِ كثير وقت حتى بدأ السائق الحديث بما انتظرته.

– كس إخت البلد. بلا مؤاخذة من حضرتك إستاذ.

وبما إنّي كنتُ قد قررت أن أتحدّث معه، زدتُ عليه:

– ألف مرّة والله. معك حق.

أخذتُ أنظر في المرآة الجانبية وهو يتحدّث.

– شو بتعمل بالحياة إستاذ؟

– حكيم متدرّب بمستشفى الجامعة.

– الله لا يعوزنا إلك. ها ها.

علّق ضاحكًا وساندته بضحكة خفيفة، ثمّ لم تمضِ ثوانٍ قبل أن أراه يحضّر أكبر بصقة شهدتُها في حياتي في فمه ثمّ يقذفها إلى يساره على الطريق. خلْتُ للحظة أنه بصق عني ولي، ولم أستطع إلا أن أضحك، وأن يعلو صوت ضحكي حتى تحوّل إلى هستيريا. فيما انشغلتُ بالضحك، انطبعت على وجه السائق تعابير مستهجنة مردّها، على الأرجح، أنّه فهم أني أضحك عليه. لكنّ ذلك لم يمنعه

أن يسألني:

– خير دكتور. فيه شي بيضحّك؟

وإذ تمالكتُ نفسي، اعتذرتُ منه وقلتُ:

– ما شي.. ما شي.. تذكّرتُ شي صار معي..

ثمّ صمتُّ. أخذ السائق يسوق على الكورنيش وقد بان عليه الغضب. وددتُ أن أكسر الحدّة فلم أجد نفسي إلا متابعًا:

– تركتني خطيبتي من شوي.

نظر السائق إليّ واختفت تعابير الغضب من وجهه فجأة. غرقت في تجاعيده. أراد أن يقول شيئًا ثم تراجع. أخذتُ أنا بدوري أنظر إلى السيّارات في المرآة الجانبية. لم أعرف لماذا اعترفتُ له بذلك. توقّعتُ منه كأيّ سائق تاكسي آخر أن يحدّثني عنكِ. أن يقول إنّك «أكيد شايفة شوفة». أن يشتمك. هذه ردود فعل منتظَرة من سائق تاكسي. لكن السائق آثر على ما يبدو عدم الخوض في الخصوصيات، أو بدء حديث غير مضمون اتجاهه، أو لعلّه كان سائق تاكسي مختلفًا عن الباقين. لا أعرف.

– مْنرجع نقول. كس إخت هالبلد إستاذ.

أومأتُ برأسي موافقًا. امتدّت يد السائق إلى جيب الباب قربه. وأخرج كاسيتًا قديمًا ووضعه في فم ما تبقى من مسجّلة السيارة.

– بتسمع موسيقى، حكيم؟

قبل أن أجيبه، كان الشريط يتمغّط كأنه يلد ولادة قيصرية ثمّ

سمعتُ صوت راغب علامة في إحدى أغنياته القديمة: «راغب بقربك أنا راغب، طالب رضاكِ أنا طالب». من جديد، أخذتُ أضحك وصار السائق يضحك معي.

– ضْحاك دكتور. شو فيها هالدني؟ ضْحاك. .

استمرّ الضحك لدقيقة مع تواصل الأغنية، وقبل أن ينتهي راغب علامة ليبدأ جورج وسّوف، كان السائق قد باشر الحديث عن أولاده.

تركته يحكي لي قصّته وكنتُ أومئ له بأنّي أستمع، ثم تابعتُ النظر في المرآة الجانبيّة. توهّجت أضواء السيارات في المرآة، ورأيت الأرصفة والمباني تمشي ثم تركض بحسب زحمة السير وسرعة السيارة. شفْتُ أناسًا يهرولون، وسمعتُ أغاني من سيّارات توقّفت على يميني.

في وحدتي، في المرآة، بعيدًا عن قصص أولاد السائق، بعيدًا عنكِ يا سناء، كانت بيروت أكثر جمالًا. لا أعرف كيف كنتُ أكيدًا من جمالها الفائض في تلك اللحظة، ولا أعرف إن كنتُ أستعيض عن حبي الضائع لكِ بحبّ مستجد للمدينة، لكني كنتُ واثقًا أني على صواب، وأن هذه المدينة جميلة، جميلة بحق.

سأنتظر أن أصعد يومًا مع سائق تاكسي ليبادرني بالقول: «كس إختا ما أحلاها بيروت!»، عوضًا عن «كس إخت هالبلد!».

من يدري يا سناء؟ المعجزات تحدث أحيانًا.

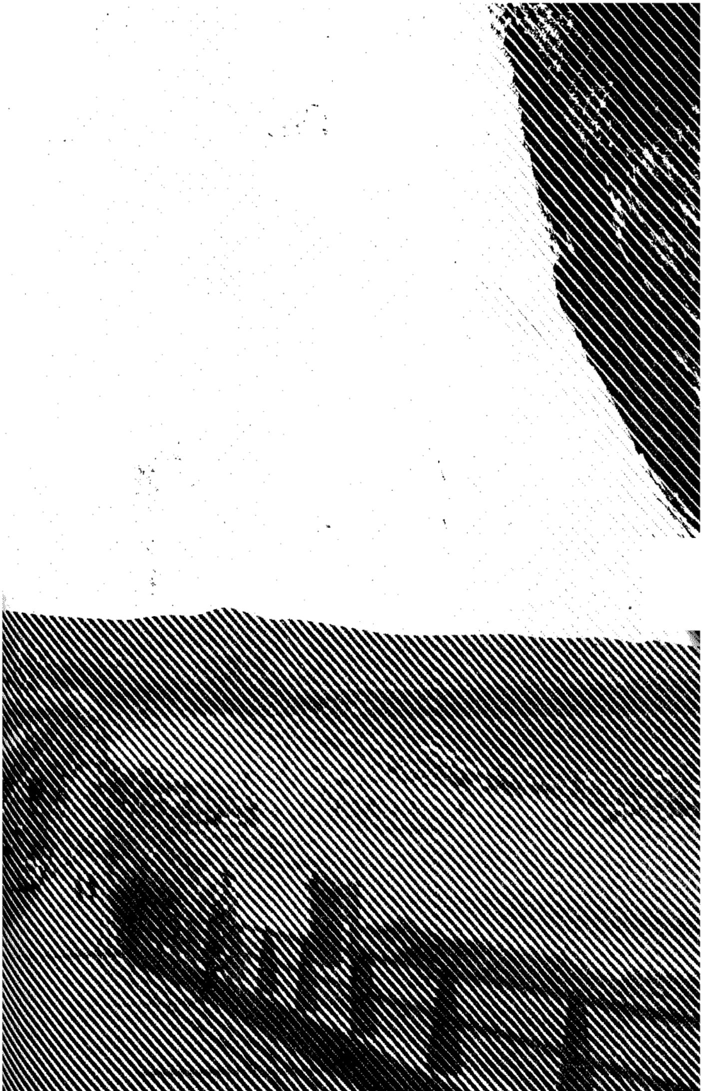

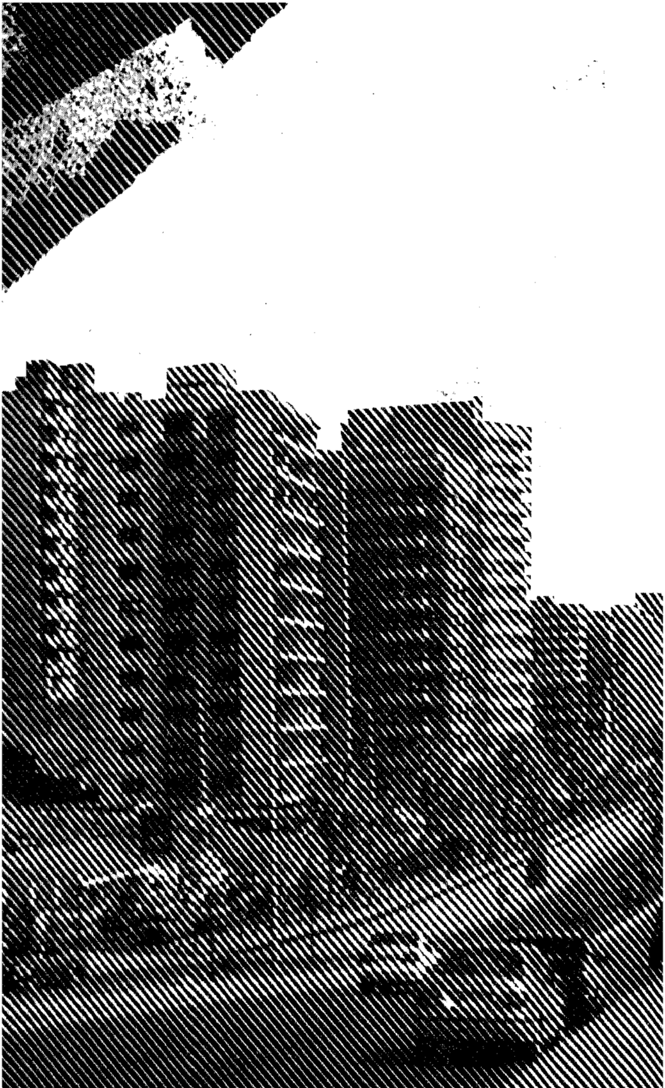

الجثة الجميلة

أودعتُ ريكس عند ماما ليومين. لمّا سألتني ما الخطب، قلتُ إنّي سأداوم لبضعة أيّام متتابعة في المستشفى بدلًا من رفيقي المريض، ثم تعجّلتُ النزول على الدرج قبل أن تسألني عنكِ. لو فعلَتْ ذلك، لما كنتُ لأقدر أن أكذب عليها. سيفضحني وجهي، وستشعر بي ولن تتركني أذهب حتى أشرح.

لكنّي لم أكذب في مسألة بقائي في المستشفى. رغم إنّي لم أكن قادرًا على العودة إلى شقّتي الصغيرة بعد انفصالنا، جاء مرض رفيقي ليخرجني من الورطة ويُشغلني بالعمل. وهكذا، حبستُ نفسي في المستشفى لأيام أربعة، لدوامين متلاحقين. كانت هذه المرّة الأولى التي أعمل فيها لدوامين متتابعين. ونجحتُ في الهروب من وعدي لك بمهلة الـ ٢٤ ساعة. أنتِ، بدورك، لم تتصلي.

في المستشفى، رأيتُ أجسادًا كثيرة. هذه المرّة لم أتوتّر. استعدتُ حيادي. كأنه عملي الأول، كنتُ متحمسًا. شرّحتُ جثتين في الليلة الأولى. الجثّة الأولى كانت لرجل طاعن في السنّ، هزيل بعظام بائنة، والثانية كانت لامرأة عشرينية فائقة الجمال.

عندما حان وقت تشريح جسد الفتاة، لم أستطع إلاّ أنّ أنظر إلى جسدها العاري. فعلتُ ذلك للمرّة الأولى. في عملي اعتدتُ أن لا يستفزّني أيّ جسد. لكنّي لا أعرف كيف خلطتُ الأمور. ولا أعرف كيف وجدتُ جسد الفتاة الميتة جميلًا.

تركتُ الغرفة، ورحتُ لأغسل يدي. غسلتُهما أكثر من مرّة، ثمّ نظرتُ إلى الماء المنسابة من الصنبور ثمّ إلى وجهي في المرآة. كان العرق يتصبّب من جبيني، عينيّ غائرتان، وشعري أشعث. فجأة، من دون أن أفكّر كثيرًا، وضعتُ رأسي تحت المياه الباردة، وأبقيتُه هكذا لدقائق.

عدتُ إلى غرفة التشريح، وباشرتُ عملي من دون أن أنظر إلى وجه الفتاة. كنتُ أراها أجزاءً متفرقة. كنتُ أقطّعها بالنظر، وساعدني ذلك في أن أواصل عملي بلا أفكاري السابقة.

بعد أن انتهيت، رحتُ إلى الغرفة الصغيرة لأنام. وجدتُ زميلي أحمد نائمًا على السرير الآخر. شعرتُ بالتعب يحلّ عليّ. استلقيتُ بهدوء على السرير. شعرتُ بالنقصان. لكأن شيئًا ما انتهى قصرًا، أو لعلّه حتى افتقد الخاتمة. ربّما انتهى هكذا كأنه لم ينتهِ. هل فقدتُ أشياء مني معك يا سناء؟ هل تركتُ أشياء فيكِ؟ لماذا إذًا لا أشعر أنكِ تركتِ فيّ شيئًا يذكَر؟ هناك شيء ما غير كامل، والأمر برمّته كان يفتقد للاقناع. ظللتُ أفكّر في ما أفتقده حتى أحسستُ بالطاقة تفرغ من جسدي عبر أطرافي. شعرتُ بعجزي يتوالى. لم يمضِ دقيقة قبل أن يجرفني النوم إلى عوالم أخرى.

الحلم المُعاد

متى تبدأ الإعادة؟ وماذا يحصل عندها؟ هل يستولي علينا الملل؟ أم أننا

نعيش الشيء جديدًا خالصًا كما تبشرنا وردة في واحدة من أغانيها؟ هل نصبح ناضجين فعلًا عند الإعادة؟

أكثر من شهر، وأنا أحلم الحلم نفسه. أراكِ يا سناء مقطّعة، كما الجثة الجميلة التي قطّعتُها بنظري. رأسك في مكان. أطرافك في آخر. جزؤك العلوي على مقربة والجزء السفلي أبعد. فأهرع في الحلم أجمّعك. أركّبك. أنجح للحظات، ثم تفرطين بين يدي قطعًا أصغر. تصبح مهمّتي أصعب. آخذ ألمّ الأجزاء الصغيرة، ويستغرقني تركيبك وقتًا أكثر، ثم أنجح، أبتعد لأنظر إليك فأحظى بثانية واحدة لكِ وأنتِ مجمّعة، ثمّ قبل أن أحدّد معنى التعبير الذي يرتسم على وجهك، تتكسّرين ثانيةً إلى أصغر، أصغر، أصغر، حتى تصير أجزاؤك ذرّات دقيقة أتنشّقها وتدخل في مجرى الهواء عندي، ثم أصحو وأنا أسعل، وفراشي مبلّل بالماء.

مرّة ذهبتُ لآخذ ريكس. فتحت لي ماما الباب، ثمّ نظرت إليّ وسألتني سؤالًا غريبًا:

– ليش حاطط القميص فوق البنطلون هيك؟

ملاحظتها السخيفة هذه جعلتني أنتبه أني لم ألبس الحزام يومًا بعد فراقنا، ولم أقفل ياقة قميص. استعدْتُ الأشياء كلها في لحظة، كيف اعتزلتُ مجموعة من الملابس كنتِ قد اشتريتِها لي، وكيف فقدتُ مزاج الكيّ، وكيف كان الغسيل يتكوّم لأوّل مرّة عندي. فجأة صرت من أولئك الشباب العازبين الذين لا يكترثون بنظافة

غرفتهم. لكني فهمتُ ذلك. فهمتُ أني كنتُ أحتاج للراحة أكثر، للملابس الواسعة السهلة الارتداء الخارجة من الغسيل مباشرةً. وأنّي كنتُ أبحث عن الذرائع لأبقى في المستشفى، لأساعد في أي شيء مهما كان صغيرًا، وقد لا يلائمني كمتدرب في سنته الثانية.

كنتُ أتفادى أن أختنق نهارًا. كنتُ أهرب. لكن هل كنتُ أحقّق شيئًا يذكَر؟

المرة الأولى

عدتُ مسرعًا بعد دواميْ عمل، لأستحمّ وأنطلق مع ريكس إلى بيت ماما. تحت الدوش، وقفتُ مستمتعًا بالماء البارد، ووجدْتُ ذلك غريبًا، فأنا من لا يستطيعون أن يستحمّوا بالماء البارد حتى في عزّ الصيف، فكيف بنهار من شهر نيسان؟ أخذ الماء يولّد قرصات في أماكن مختلفة من جسدي. لا أعرف إن كان ذلك وليد النوم القليل الذي حصلْتُ عليه في الأيام الماضية أم أنّ الماء البارد يترك هذا الفعل على أي جسد، وتحت أي ظرف.

تحت الدوش، وجدتُ عضوي ينتصب. هالتني فكرة أني أشعر بالشهوة الجنسية وأنا منهَك على هذا النحو. بدأ الموقف كوميديًا ثم ما لبث أن تحول وجدانيًا. أخذتُ أتذكّر المرّة الأولى التي فعلنا فيها الحبّ في شقّتي القديمة، وابتسمْتُ تحت الدوش. وقتها، كان الأمر مضحكًا. كنتُ سكرانَ وكنتِ مزهزهة. ظللتُ أتأكد إن كنتُ فعلًا

تودين فعل ذاك ونحن مخموران، وظللتِ تؤكدين لي أنك مش سكرانة. «أنا بس مْزَهزْهَة شوي». وضحكنا. ضحكنا كثيرًا. لم نفعل الكثير. لم يكن وضعنا ليسمح، ولم تكن تلك المرّة التي نكتشف فيها ما نحبّ وما لا نحبّ. لكنّها كانت المرّة الأسطع لقصّتنا. ربّما لأنّها البداية؟ ربما. لا أعرف. أعرف أن تفاصيل تلك المرة مطبوعة في ذاكرتي، كيف ابتسمنا مثلًا ابتسامتينا عندما اقترب أحدنا من الآخر، وكلانا نعرف ما الذي سيحصل. كنتُ أرى ابتسامتي وابتسامتكِ في الوقت نفسه. أذكر لمّا ضحكنا عندما لم تنفع التجربة الأولى، وكيف تعانقنا، ونمنا، وكيف استيقظتُ قبلك مع الظهور الخجول للشمس. حتى ريكس كان نائمًا. كنتُ وحدي، مع انبلاج الصباح، والستارة البيضاء الرقيقة التي ترقص بفعل الهواء الآتي من الباب المشقوق. لم أتزحزح وقتها من السرير يا سناء. ابتعدتُ عنك قليلًا فقط على نحوٍ يخوّلني النظر إلى جسمك المضطجع على مقربة. عددتُ شاماتك النافرة وغير النافرة، وقستُ المسافة بين كتفيك بالنظر، وتعرّفتُ أكثر إلى لون شعرك الذي كان يتغيّر لونه تحت شعاع الشمس الداخل من باب الشرفة، وحفظتُ الطريقة التي تحني بها ساقيك وأنت تنامين إلى جنبك، ولن أكذب: نظرتُ إلى مؤخّرتك. أنتِ تعرفين ذلك. سأعترف لكِ بذلك في وقت لاحق، عندما ستسأليني: «شي مرّة تطلّعت بطيزي؟»، وسأجيبك وأنا أضحك: «هُو هُو. ما بْينعدّو». ستستهجنين ذلك وتسألينني كيف أقول ذلك بمنتهى البساطة، ونكاد

نتعارك، فأسألك: «ليش عم تسألي لكن؟»، لتردّي بعدها مع شيء من التردّد: «إنّو أي بنت بتفكّر بهالسؤال!».

كيف انتهى النقاش؟ لا أذكر. لكنّي أذكر كيف أعدتُ الاقتراب منكِ في السرير في تلك الصبيحة وأنت نائمة وعانقتُك، ثم فجأة وجدتُ نفسي أنتصب من جديد وأنا ملتصق بك. لم تمضِ ثوانٍ لعناقي لك قبل أن تفتحي عينيك وترفعين نظرك إلي وكأنك تحسستِ ما جرى، ثمّ تضربينني بالوسادة وتنهضين من الفراش وأنت تقولين: «قول صباح الخير قبل!» غرقتُ في وصلة ضحك طويلة، وانتهز ريكس الفرصة ليبدأ نباحه الصباحي.

رأيتُ كل ذلك وأنا مغمّض العينين تحت الدوش. وعندما فتحتُ عينيّ كان نظري مهزوزًا، وتورّمت الذكرى أمامي في كل قطرة ماء

انسابت على بلاطات الحائط. ثمّ مددتُ يدي إلى عضوي واستمنيْت. كانت الذكريات قد مهّدت للمرحلة الميلودراميّة من حمّامي. صرتُ أبكي. للمرّة الأولى منذ زمن بعيد جدًّا بكيت. لا أذكر حتى المرّة الأخيرة التي بكيتُ فيها. أذكر أنّي لم أبكِ أمامك قط. وامتزج بكائي بماء الدوش حتى وصلتُ لدقيقة ظننتُ فيها أني لا أذرف الدمع، وأن هذا الماء ينهمر عليّ من فوق.

كيف أصبحنا غريبين هكذا يا سناء؟

التهشيم البطيء

سناء. قراراتي المتكررة بالابتعاد عنكِ لم تكن تنجح. بقيت أشياء كثيرة عليّ فعلها لأنهي العلاقة. لم أكن قادرًا بعد على مصالحة نفسي. بعد أيام من وقفتي في الحمّام، سأنظر إلى صوَرنا، وأستحضرك من جديد. ستعيدني الصوَر إلى مشاهد بعينها، وتخرج من لحظاتها الثابتة لترميني في مشاهد أبعد، فآخذ أتذكّر كيف كنا نخطو في الشارع، فتتقدمينني، أو أتقدّمك، أو تتجاور أرجلنا الأربع في المشي، ثمّ أعدّ المرات التي جلسنا فيها على مقعد حجري في الكورنيش، أو في الحديقة، أو في الشارع، أو أستعيد كيف كنت أنظر إليك تبتعدين عندما كنا نفترق في مكان عام، أو يقطع جلستنا صديق عابر فيمنعنا من مواصلة حديثنا.

لمّا حضّرتُ الشاي في مطبخي الصغير أخرجتُ كوبين بحكم

العادة، ثم انتبهت وأعدتُ أحدهما للخزانة. رجعتُ من المطبخ مع صحن المعكرونة الذي حضرتُه إلى الصوَر التي فرشتها على السرير.
انتبهْت وأنا أنظر إلى صورة نجلس فيها جنبًا إلى جنب إلى طاولة طعام أنك لن تعلميني هذه المرة أنكِ «مش جوعانة» عندما أدعوك لصحن، وأنّك لن تتذوّقي بعدها من صحني، أو تتشجّعي فتقومي لتسكبي لنفسكِ صحنًا. الصوَرة بين يديّ انقلبت لحظة ثابتة. أنتِ لستِ موجودة. لن تدخلي بعد قليل. لن يرى أحدنا كيف يتحادث الآخر مع آخرين من دون أن يكون جزءًا من الحديث، لن ينظر أحدنا إلى الآخر المنهمك بالحديث، ويلاحظ كيف تتحرك عضلات وجهه. لن نرى نفسينا نتحادث على الهاتف مع الناس، أو نلحظ اعوجاج أسناننا للمرّة المئة، أو نتأكّد من لا كمال ضحكتنا، أو نحدّق في بثور ظهرت البارحة في وجهينا. لن ألاحظ بعد الآن كيف تستخدمين ساعديكِ مرارًا بالطريقة نفسها عندما تمشين، أو كيف تحاولين أن تسوّي كتفيك عندما تدّعين الثقة. لن يقترب منكِ ريكس وأنت ممدّدة على الكنبة، فتمسّدين على ظهره ليتشجّع ويصعد وينام في حضنك. لن ندخل معًا المحلاّت، وننتقي معًا أشياءً كثيرة. لن نختلف بعد الآن ونجد نفسينا جزءًا من مشكل سخيف، وننتهي بأن ننتصر للتسوية التي يحتّمها وجود آخرين حولنا.

كانت الأشياء أكثر من أن تُختصَر. أكثر من أن تُشطَب. كل صورة من الصوَر المفروشة على السرير ذكّرتني بفشلي. لم أكن

أتقلّب بين ذكرى وأخرى، بل بين فشل وفشل.

كان التهشيم مغرقًا في البطء. لم يكن انتقامًا. كان مازوشية خالصة.

الأرجوحة والمعكرونة

مستلقيًا على الأرجوحة، نظرتُ إلى السماء التي بدأت تعتم، أخذتُ أتمرجح. إلى اليمين. إلى اليسار. إلى اليمين. إلى اليسار. سمعْتُ صوت المفصّلات، ثمّ أتاني صوت إغلاق الباب، وقام ريكس من أمامي نابحًا، ثم اتّجه نحو باب التّراس. اعتدلتُ في أرجوحتي وأنا أنتظر الداخل. انتبهتُ أن الباب مغلق. كيف استطاع الداخل فتحه إذًا؟ قعدتُ للحظات أنتظر. كانت فكرة واحدة تسيطر عليّ، لكنّي أخذتُ أكذّب نفسي. كنتُ أسمع ريكس ينبح بمرح ويصدر تلك الأصوات التي يفعلها عندما يلتقي أحدًا مألوفًا. ثمّ لم يَمْضِ كثير وقت حتى صدق توقّعي، وتظهرت يا سناء تحملين المفاتيح بيَد فيما ريكس يقفز حولك. دخلتِ بتأنٍ وخطوتِ ببطء، وما إن وجدتِني حيث أنا على الأرجوحة حتى توقّفتِ وألقيت عليّ التحيّة، وابتسمتِ ابتسامة غريبة.

لا أعرف أن أصف شعوري في تلك اللحظة. لن أكذب وأقول إنّي فرحتُ فرحًا ساطعًا أو شعرتُ بالكره تجاهك بشكل واضح. لا هذا ولا ذاك. كنتُ ضائعًا. مذهولًا. كنتُ أسقط. تجمّدتُ في مكاني من دون أن أقول شيئًا. نظرتُ إليكِ. عاينتُك. نعم. من دون أن أقصد، عاينتُك. ما الذي اختلف في فترة الغياب هذه؟ كم مرّ؟ أربعة

أشهر؟ أكثر بقليل؟

حدّقْتُ فيكِ ولم أتحدّث، أو لم أكن أعرف ماذا أقول. سألتِني إن كنتُ أودّكِ أن تغادرين. لم أردّ. كدتِ تلتفتين وتغادرين لكنّي وجدتُ نفسي بلا تخطيط ألفظ اسمك.

كنّا هذه المرّة غريبين بشكل جميل. للحظة تلذّذتُ بخفرنا، أنا على الأقل. لكنّ عقلي لم يلبث أن بدأ المقارنات. كان هناك بعض من التوتّر في طريقة حديثنا وفي الطريقة التي كنّا نصطنع فيها ابتداء المواضيع، قبل أن تموت فجاة لننتقل إلى مواضيع أخرى غير ذات أهميّة. وددتُ ان أنزع الاضطراب من جلستنا، فقلتُ لكِ:

– ح تضلّك قاعدة هيك بهالتياب. في بعد إلك تياب أريَح، جوه بالخزانة.

نظرتِ إليّ نظرة الرفض أولًا. ساد الصمت، ثمّ أعلنتِ موافقتك بإيماءة خجولة، ودخلتِ إلى الغرفة. ولم تمرّ دقيقة قبل أن ألحق بك، لأجد باب الغرفة، على غير عادتنا القديمة، مغلقًا. عندها، قررتُ تحضير بعض المعكرونة. الطعام دائمًا ما يساعد في إزالة التوتّرات.

صدع العالم

فقتُ عند الرابعة صباحًا. وجدتُ نفسي عاريًا في السرير. التفتُّ فلم أجدك. باب الترّاس كان مفتوحًا، والستارة تتمايل كما العادة. قمتُ ببطء. لبستُ بنطلون البيجاما الملقى على الأرض، وخرجتُ. انتظرتُ

أن أراك واقفة تنظرين إلى المدينة، لكنّك لم تكوني هناك. وقفتُ أحدّق بالقمر، واستطعتُ تبيّن السحب وهي تمرّ لتغطّيه للحظات، فتقسّمه قسمين.

حدثِتني قبل أن تذهبي عن سفرك المرتقب بعد يومين. قلتِ إنّكِ ستقومين بدورة في أوروبا قبل أن تصلي لجامعتك لتبدأي دراستك. قلتِ إنّك لم تستطيعي أن تغادري دون أن تلتقيني. تركتُكِ تحكي. تلعثمتِ ثمّ استفضْتِ. اعتذرتِ عمّا فعلناه للتوّ. قلتِ إنّه لن يغيّر في الأمر شيئًا. ولم أعرف لِمَ وجدتُني أجيب:

– ولا يْهِمّك.

وأنا أنظر إلى السماء، شعرتُ أنّ كلّ شيء يتصدّع. رأيتُ الصدع يمرّ عبر العالم. عبر الأشياء. يفلقها أنصافًا. يظهر بواطنها. يخرج منها أشياء جديدة كانت مخفيّة. ولم يلبث الصدع أن وصل قلبي. أخذتُ أبكي من جديد. لكنّي كنتُ فرحًا. كنتُ في قصّتي معكِ مفتقدًا للنهاية، وحصلتُ عليها أخيرًا.

أسرَعَ الزمن.. حدثت الأشياء

لكأنّ الزمن أسرع في غيابك يا سناء. لكأني دخلتُ عالمًا موازيًا. حتى البلد انفجر بعد أسبوع من رحيلك. عندما سمعتُ الأخبار، تيقّنت أن الأمر سيتطوّر بلا ريب. هذا حسّ أمنيّ ربوه فيها أهالينا. استشعار الخطر. مستويات الخوف. متى يكون الخوف فعليًا ومتى

يكون قلقًا أكثر منه خوفًا. كل هذا يعرفه من عاش طفولته في هذا البلد. هذه ليست وَسْوَسات. ربما أنت التي كنتِ مخطئة، وقلقي ربما لم يكن وسْوَسات. أنت التي عدْتِ إلى البلد من الخليج منتصف التسعينيات. ألم أشعر أن شيئًا ما حدث بيننا قبل أن تخبريني؟ هذا هو. الأمر نفسه.

لم أذهب إلى المستشفى على الفور. وددتُ أن أعطي لقلقي فرصة. من يدري. قد تغلبينني هذه المرّة، وتكونين على حقّ. وهكذا، جلسْتُ على الكنبة أمام التلفاز، أتابع المؤتمرات الصحافية المتشنّجة، ثمّ لم ألبث أن سمعت صوت إطلاق رصاص قريب. خرجتُ إلى الترّاس ونظرتُ إلى الأسفل. كان الرجل واقفًا عند أوّل الشارع، حاملًا سلاحه في يده. أطلق أكثر من رصاصة في السماء، ثم توقّف وأخذ يصرخ بكلام لم أفهم معناه، لكنّي فهمت شتيمته: «يا ولاد الشرموطة.. يا ولاد الشرموطة».

دخلتُ إلى الغرفة، ونظرتُ إلى التلفاز.كان شريط الأخبار أسفل الشاشة مزدحمًا بالأحداث. متى حصل كل هذا؟ أخرجتُ شنطتي الصغيرة، وضعتُ فيها بعض الملابس، ثم خرجْتُ مسرعًا إلى المستشفى.

الجثث الميتة.. الجثث غير الميتة

عجّت المستشفى بالمصابين، ومع متابعة الأحداث، استنفر المسؤولون

وأخذوا يعيدون توزيع المهمّات. صرنا نستقبل الجثث الميتة كما هي، بلا أوراق كثيرة، وانشغل آخرون بمتابعة الحالات الطارئة.

«الجثث الميتة». توقفتُ لحظة وأنا أنظر إلى هذا اللفظ. هل من جثث ليست ميتة؟ نعم. لديّ نظرية في هذا الصدد. هناك جثث غير ميتة. الجثث التي لا تشعرك بإمكانية حملها لقصّة هي جثث ميتة. البشر يختلفون حتى في موتهم. هناك منهم من هو خافت الإضاءة، وهناك من يسطع حتى وهو بلا روح.

كم من الجثث وصلت في اليوم الأول؟ لم تكن كثيرة. توزّعت على مستشفيات عدة في المنطقة. لكنّ جثة واحدة من هذه الجثث كانت بألف جثة. الجثة التي تأتي مخروقة برصاصة أو إثر حادث غير متوقّع مختلفة عن جثث الذين ماتوا بأزمة قلبية أو في عملية أو حتى بالسرطان. في حالات السرطان، وهي حالات قليلة لم أشهد الكثير منها، تكون الجثة قد وصلت نهايتها هزيلة وتعبة، وبلون يفتقد اللون. الجثّة التي تأتيك بعدَ عملية، تكون مقطّبة، نعم. مشوّهة، لكن أُحسِن توليفها من جديد، وقدومها قد يكون منتظرًا ضمن نسبة أعداد موتى العمليات. أمّا الجثّة التي تأتي ميتة إلى المستشفى إثر حادث عنف فتكون مختلفة. لم تأتِ فقط في غير موعدها كما سائر الموتى. أتت في غير موعدها وأتت بقصّة. أتت باستثناء. ربّما يكمن اختلافها في أنّ قدومها غير منتظر، واستثنائي؟ على الأقلّ في العام الذي نحن فيه. لا أعرف. لا أعرف إن كان منطقي محكمًا، ونظريّتي مقنعة. ليس

مهمًا. استقبال الأشياء وفهمها هو شخصانيّة مطلقة. هكذا أرى، وهكذا أعتقد، وهكذا أنا أكيد. لا أعرف كيف كان الوضع ليكون في الحرب الأهلية الماضية. هل كانت الجثة المخروقة بالرصاص لتفارق الاستثناء؟ هل كانت لتفقد قصّتها بسبب لا استثنائيتها؟

كنتُ تعبًا. ليس بسبب العمل. الجو المسيطر نفسه كان متعبًا. التلفزيونات مضاءة في الأروقة وصالات الانتظارات والغرف، وبعض الأهالي فضلوا البقاء رغم مخالفة ذلك للقواعد. هل كثرة الاستثناء تتعب؟ ربما. هذه الانتفاضة في الأحداث والتي تغيّر إيقاعًا معتادًا تتعِب عندما تطول، خاصةً إن كنت تنتظرها لتنتهي ولم تسلّم بعد بلا استثنائيتها وروتينها.

اليوم الثاني، وجدتُ أمامي جثتين. قالوا لي إنّهما لأخوين قصّتهما سيتحدّث عنها أهل بيروت لأيّام، وسأقرأها في الصحف بعد أسبوع
بتفاصيل أكثر. باختصار، أصيب الأوّل برصاصة. حمله أخوه ونزل به إلى السيّارة وانطلق إلى المستشفى. أوقفوه الشباب على الحاجز، ولما وجدوا معه المصاب، تركوه يمرّ. ما إن مرّت السيّارة حتى أُمطرت بالرصاص. قُتل الشابّ وانضمّ إلى أخيه. لم توضَع الجثتان في غرفة واحدة. لكنّي لم أمنع نفسي من ارتجاع وجه الأخ الأوّل عندما رأيتُ وجه الثاني. كانا جثّتين شبيهتين إلى حدّ التطابق. هذه قصّة. هاتان جثّتان لم تموتا بعد.

لكنّي لم أعرف يا سناء أنّ هذا كله ليس شيئًا يُذكر أمام القصّة

التي سأجد نفسي جزءًا منها.

أحيانًا أفكّر. هل كنتُ لأكون شاهدًا خفيًا على القصّة وأنت لا تزالين جزءًا من حياتي؟ شيء ما يقول لي إنّ خروجك كعنصر، أتاح لعناصر أخرى أن تظهر.

لعلّها الحياة كانت تجتاحني بعد أن هشّمت فقاعتنا التي حبستُ فيها نفسي لسنوات؟ «لعلّها» أقول، فهذا أكثر من أن يكون مقنعًا. لكن مجددًا، هل على قصصنا الشخصية أن تكون مقنعة؟

رسم أنصاف الوجوه

بعد أيّامٍ ثلاثة قضيتها في المستشفى، عدتُ إلى البيت. مشيتُ في الشوارع الفرعية متلافيًا المسلحين الذين كانوا يظهرون من فينة

لأخرى في شارع الحمراء الرئيسي. كانت الأمور قد استقرّت نوعًا ما في الشارع رغم المظاهر العسكرية. وصلتُ إلى الشقّة عند السادسة مساءً بلا مشاكل تذكَر. استقبلني ريكس بترحاب عارم. منذ ثلاثة أيام لم يرني، وكاد طعامه أن ينفد. بعد غسل وعائي الأكل والشرب الخاصين به، أعدتُ ملئهما. انهمك ريكس بوجبته الطازجة، ودخلتُ أنا لأستحمّ. في مرآة الحمّام، لم أعرف نفسي. كان جفناي متهدلين إلى حدّ كبير، وعيناي محاطتين بهالتين سوداوين للمرّة الأولى. حتى في الجامعة، لم يحدث لي هذا. استحممتُ سريعًا، ورميتُ نفسي على السرير ونمت أسرع ممّا توقّعت. لا أذكر حلمي، لكنّي أذكر

رؤيتي لساحة تغرقها المياه، واحساسي بالاختناق. لم أصحُ إلا على لسان ريكس يلعق وجهي. اعتدلتُ في سريري، ونظرتُ إلى الساعة. كانت تشير إلى ما بعد الرابعة صباحًا بقليل. كيف نمتُ الساعات التسع تلك، لم أفهم. نزل الكلب ووقف أمام باب الشقّة وأخذ ينبح يدعوني لإخراجه. ثلاثة أيام لم يخرج فيها، أوصلتني إلى هذا المأزق: تنزيهه في الفجر.

مشيتُ في شوارع فرعيّة كثيرة كانت فارغة من أيّ أثر للحياة. صعدتُ ونزلت مع ريكس. كان يركض أمامي. يقف على مقربة ثم ينبح لي بأن أسرِع. عندما تعبت من اللحاق به، اقتربتُ منه فأخذ يلعق يدي. غافلتُه وأمسكتُ برباطه. أصدر ريكس صوتًا حزينًا، ثم انصاع للأمر الواقع، وعدّل من مشيته تبعًا لسرعة خطواتي أو بطئها.

رغم إمساكي به، تركتُه يقودني. وجدتُه يُخرجني من شارع فرعي
إلى شارع الحمراء الرئيسي. هناك، كان أحد الشباب ينظّف الحائط. لم أستوعب الأمر أولًا ثم فهمت بعد لحظات من معاينتي له من بعيد، أنه يهيّء الحائط ليرسم عليه. اقتربت منه، ثم ربطتُ ريكس بعمود كهرباء قريب. كان الشاب يعاني في لصق الأوراق على الحائط، فقررت بلا تفكير كثير مني، أن أساعده.

ساعدتُه في تثبيت الورق المقوّى. لم نتكلم. تبادلنا النظرات وابتسمنا، ثم أومأ لي بإيماءة شكر. وأنا أثبّت الورق، انهمك الشاب في إخراج بعض عبوات الألوان وأشياء أخرى من حقيبته الموضوعة

على الأرض، ثم بدأ بالرشّ. بعد دقائق من توقّفه عن الرشّ، أزلنا الأوراق واحدة إثر أخرى. كان الرسم قد بدأ يتّضح: تكرار لأنصاف علوية من وجوه مختلفة رُصَّت بعضها قرب بعض في خطّ أفقي.

كان الشاب يستعدّ لضبّ حاجيّاته عندما لمحتُ مسلحًا يخرج من شارع فرعي، ينظر باتجاهنا ثم يقترب منا. وكما لم أفهم لِمَ توقفت لأساعد الشاب، لم أفهم لِمَ حررتُ ريكس بسرعة من عمودِ الكهرباء وانطلقتُ أجري بعيدًا. لم أنظر ورائي، ولم أسمع مناداة المسلّح لي.

تذكّرتُك وأنا أجري يا سناء. تذكّرتُ حركاتك كلّها. الطريقة التي تجرين بها. كيف تستخدمين يديك عندما تودّين إثبات فكرة. حصرتُ تفكيري بكِ. كنتُ أنتظر رصاصة في ظهري، وأخذتُ أشعر بمسامي تنفث قطرات العرق، لكنّ الرصاصة لم تأتِ.

بل حدث العكس تمامًا.

رأيت الموت للمرّة الأولى

في مدخل البناية، الذي لجأتُ إليه. وقفتُ ألتقط أنفاسي. ما إن قرّرت أن أخرج، حتى وجدتُ سيارة مسرعة تمرّ في الشارع. عدتُ سريعًا إلى الداخل. ريكس كان صامتًا تمامًا كأنه أحسّ بهيبة الموقف. بقيتُ واقفًا لدقائق وأنا أنصت. كان الشارع هادئًا بلا أصوات تذكر. بعد تردّد، قرّرتُ الخروج. أحكمتُ رباط ريكس على معصمي، وخرجتُ ببطء. لم يكن هناك أحد، وكانت السماء قد بدأت تمطر. نظرتُ

إلى الجهة التي أتيتُ منها في شارع الحمراء، فلم أجد شيئًا يتحرّك في مرمى بصري. قررتُ أن أعيد ريكس إلى البيت، وأن أتوجّه إلى المستشفى، فأكملت طريقي مسرعًا إلى آخر الشارع. قلتُ إنّي سألتفت في الشارع الجانبي الأوّل الذي أصادفه على يمين ثمّ أقفل عائدًا إلى شقّتي من هناك ومن ثم إلى المستشفى. كنتُ أهرول، وكذلك كان ريكس الصامت. وصلتُ إلى الشارع الأول الذي وجدته. توقّفتُ عند الناصية لألتقط أنفاسي. ثم نظرتُ إلى الوراء مرة أخرى. قبل أن أواصل طريقي، التفتُّ إلى الأمام من جديد. هناك وجدتُ شيئًا متكوّمًا وسط الشارع. وقفتُ للحظة لا أعرف ماذا أفعل، أقترب أم أواصل الهرب إلى منزلي؟

لّما تأكدتُ أن لا أحد في الجوار،.اقتربْتُ مسرعًا من الشيء الذي رأيتُه، ثم اتضح لي ما توقعته. كان المسلّح نفسه غارقًا في دمائه على الأرض. كاد ريكس أن يقترب من دم الرجل، لكنّي أبعدتُه بكلمة آمرة يفهمها. انحنيتُ على الرجل، ودسستُ رقبته ملوثًا يدي بالدم، قبل أن يعود المطر ليغسلها.

كان بلا نبض. تراجعتُ إلى الخلف لا أعرف ماذا أفعل. كانت هذه المرة الأولى التي أواجه فيها الموت طازجًا، لا جثّة. لم أفكّر كطبيب. لم أفكّر فيما يجب أن أفعله لأعيد النبض للرجل. هالتني الحالة التي كان فيها. هذا الذي كان يصوّب سلاحًا عليّ منذ دقائق بات غارقًا في دمه. التفتّ من جديد إلى أول الشارع. لم

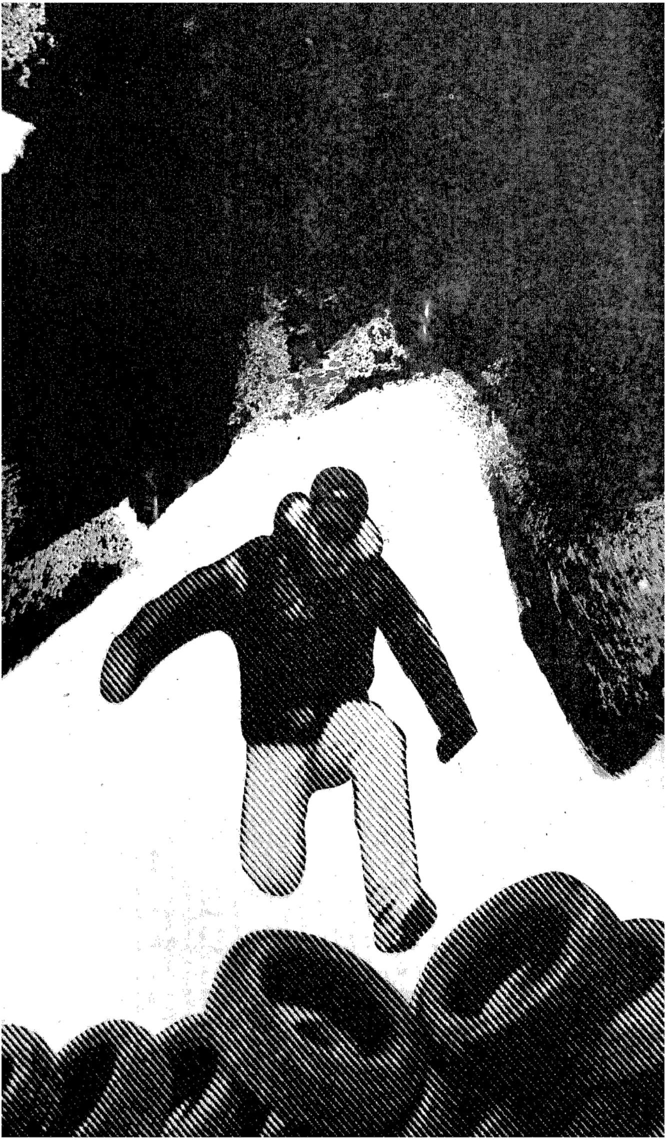

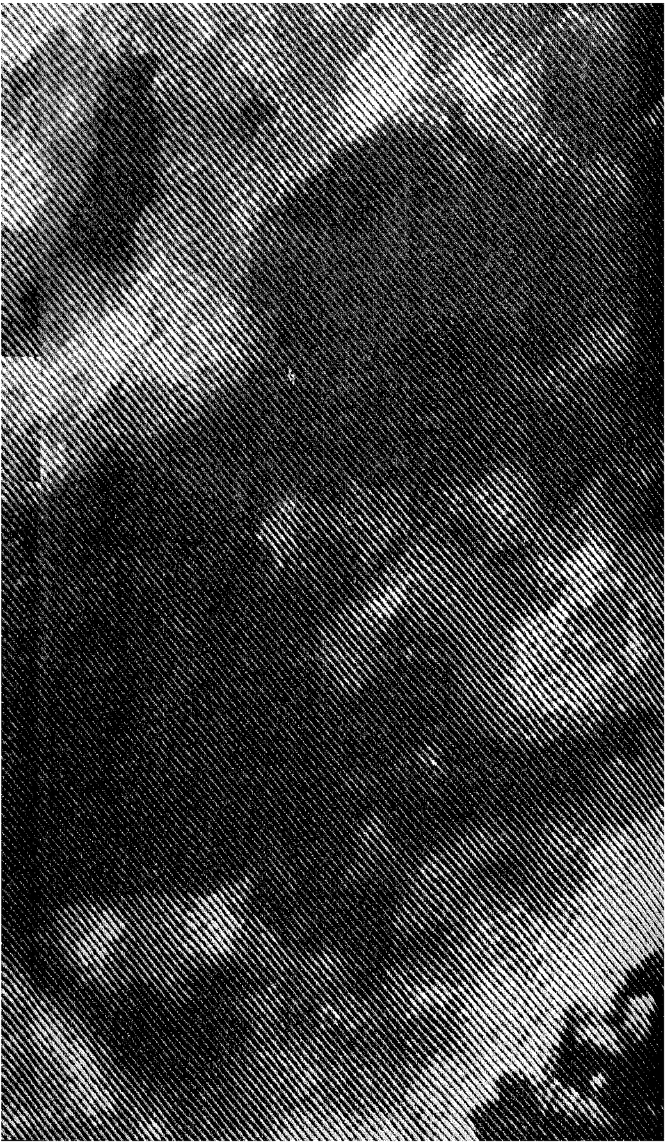

أكن أستطيع أن أرى الحائط حيث الرسم، ولم أجد الشاب. كان الشارع يلتوي عند تلك النقطة ويخفي ذلك الجزء. التفتُّ من جديد إلى آخر الشارع لكنه كان فارغًا من أي حياة. لا سيارات ولا أناس في الشرفات. لا شيء.

فورًا ابتعدت. أمسكتُ رباط ريكس الذي لحسن الحظ استجاب لأمري بالمغادرة، وعدتُ راكضًا إلى الشارع الجانبي الذي كنتُ أنتوي دخوله.

فكّرتُ أن أتّصل بالمستشفى من تلفوني، ثم ضربني التوتّر. كنتُ قد أصبحتُ قريبًا من منزلي. ثمّ وجدتُ هاتفًا عموميًا ثابتًا منصوبًا على الرصيف، ولحسن الحظ كنت أمتلك البطاقة الهاتفية. من هناك اتّصلت.

كنتُ متوتّرًا، تمامًا كرفاقي أيّام الجامعة الذين كنتُ أستهزئ بهم.

شاهد على حيوات أخرى

أخذتُ أنتظر في الطوارئ قدوم عربة الإسعاف. مسرعًا عدتُ إلى هنا، بعد أن أودعت ريكس في الشقّة، وغيّرتُ ملابسي. تحجّجت بمساعدة بعض الأصدقاء في أعمال إدارية، لأبقى في الطوارئ. حاولْتُ إدخال بعض المحتوى من الملفّات الورقيّة إلى نظام الكمبيوتر بلا جدوى. على الرغم من سهولة المهمة الموكلة إليّ، كان عقلي في مكان آخر. فكّرْتُ بالرجل. هل مات فعلًا؟ أم لم يكن ميتًا؟ لا.

لا. كان بلا نبض. كان ميتًا. مؤكد، كان ميتًا. خرجْتُ من مكاني، ووقفتُ عند الحائط بالقرب من المصاعد. من هنا سيدخلونه، لو أتوا به. من هنا. فكّرتُ بك يا سناء. فكّرتُ أن الأشياء هذه لم تكن لتحدث ونحن معًا. لم أكن لأداوم في المستشفى على هذا النحو، ولم أكن لأعود إلى المنزل البارحة، ولم أكن لأنام، ولم أكن ربما لأحلم، ولم يكن ريكس ليوقظني مصرًّا أن أنزّهه. على الأقل، كنتِ نزّهتِ ريكس أنتِ، وكنتُ قضيت الوقت معك عوضًا أن أقضي أوقات فراغي في العمل.

الآن بتُّ مفتقدًا البحيرة الآمنة. الآن أعرف معنى الأمان. الآن فهمت غباء فكرتي عن ارتباط الأمان بالملل.

فكّرْتُ بكل ذلك وأنا أنظر إلى حذائي الكريه، وقررتُ في تلك اللحظة أني سأشتري حذاءً جديدًا لحظةَ أخرج من هنا، وتفتح المحلات صبيحة هذا اليوم.

رفعْتُ نظري، مستعدًا لمتابعة عملي، فوجدْتُ امرأة حاملاً أمام المصعد تمسك ببطنها، والألم يبدو عليها. وددتُ أن أقترب منها لأتأكد ما بها، لكنّ بابي غرفة الطوارئ فتحا في تلك اللحظة، ودخلت العربة الجرّارة. على العربة، كان الرجل الذي بلّغتُ عن إصابته. وإذ مرّت العربة مسرعة بيني وبين المرأة الحامل، أخذتُ أتابع الرجل وهو يبتعد. رأيتُ شيئًا غريبًا على ساعده لم أكن قد انتبهت إليه في الشارع: رقم تلفون وعنوان منقوشين!

ما إن مرّت العربة حتى أخذت المرأة تصرخ. اقتربتُ منها وأمسكتُ يدها، واتجهت نحونا بعض الممرضات ليساعدنها. كانت تلد.

لكأن الغرباء كانوا يستهدفونني في تلك الليلة يا سناء؟ من الشاب الرسّام إلى المسلّح إلى المرأة الحامل في الطوارئ؟ كيف أصبحتُ فجأة شاهدًا على حياة كل هؤلاء؟ كيف اقتحمتُ حياتهم، وكيف اقتحموا هم حياتي؟ كيف دخلتُ هكذا، وصرتُ جزءًا من قصص لا أفهمها؟ وهل يتسنّى لي، فيما لو كان اقتحامي مقصودًا، أن أتابع دوري؟

الجثة التي قد لا تموت

في المشرحة وقفْتُ. أتى معي أطباء آخرون. بعد التعرّف على هوية الرجل، اتصلوا بأهله. جاء الجيران، وتعرّفوا عليه. قالوا إنّه يسكن مع أمّه المريضة. المسلّحون يملكون أمّهات مريضات يا سناء؟ أتى أيضًا أناس آخرون يلبسون ملابس تشبه ملابس المسلّح ونظروا إليه وأومأوا برؤوسهم. هل كانوا رفاقه المسلّحين؟ هل تركوا سلاحهم خارج المستشفى؟

كنت أقف صامتًا. ساعدتُ فقط في إخراج الجثّة من البرّاد وإدخالها. لم أساعد في غسلها. تعرفتُ فقط على وجهه عندما غسلوه. لم أحفظ وجهه لمّا كان مكوّمًا وسط الشارع. كان وجهه مطمورًا بالدم. كنتُ الوحيد الذي أعرفه يا سناء ضمن كل من أتوا وألقوا النظرة عليه. هكذا فكّرتُ وأنا أقف أمام جثّته. هذه الجثّة

وحدي أعرفها. هذه الجثّة وحدي أعرف مشهدها الأخير، لا أمّه، ولا جيرانه، ولا رفاقه المسلحون. هل كان ليقتلني فيما لو ظللتُ واقفًا ولم أهرب؟ هل صوّب سلاحه في ظهري قبل أن تجتاحه السيارة؟ أين الفتى الرسّام؟ ألا يعرفه كما أعرفه أنا؟ ألم يكن موجودًا هناك؟ هل قتِل؟ هل ما زال حيًا؟ من قتل هذا الرجل؟ وهل رآني أحد وأنا أنحني فوقه؟ هل كان حيًّا؟

ظلّت الأسئلة تضربني كلما ابتعدتُ لدقائق عن العمل ومشيتُ في رواق المستشفى. كلّما أخرجت الجثّة رأيت رقم التلفون والعنوان المنقوشين على ساعد الرجل. تعرفينني. لا أحفظ قط الأرقام يا سناء. حتى رقمك لم أكن أحفظه. أستعين بذاكرة الخليوي في هذه المسألة. أنت تعرفين ذلك، وتخانقنا حول هذا مرّة. لكن الأمر اختلف هنا. وجدتني أحفظ الرقم من دون أن أقصد. كلما أخرجتُ الجثة وأدخلتها ليراها أحد، أسمعتُ الرقم لنفسي قبل أن أتأكّد منه بالنظر.

كنتُ أمام جثّة غير ميتة، تحمل قصّة أعرف بعضها.

كنتُ أمام جثّة قد لا تموت. عندي لن تموت.

غرفة الأطفال

أخذوه في اليوم التالي. لم أعرف ما حدث معه بعدها، ولم أسعَ لسؤال أصدقائي في المستشفى. كنتُ في الوقت المستقطع من العمل، أجلس وحيدًا في مقهى المستشفى، أخرج دفتري الصغير، وآخذ أكرّر

تدوين الرقم الذي حفظته عن ظهر قلب. هل كنتُ أخاف أن أفقده؟ لا يجب أصلًا أن أفقده؟ أن أميت هذه الجثة؟ لا أعرف ما الذي كنتُ فعله. بين سطور كتاباتي لك، دوّنت الرقم. في هوامش الصفحات، كرّرته. كان حاضرًا كلغز يمهّد لنهاية حكاية.

شغلني الرقم عنكِ. لأوّل مرّة منذ زمن لم أكن أفكر فيك. هل كنتُ أحتاج لأشهد الموت أمامي حتى أنهي قصّتنا؟ كنتُ أطلب فقط الخروج الآمن. هل هذا هو؟ لا أعرف. لا أعرف، ولا أعتقد. بقيتُ اليوم التالي في المستشفى رغم أنه كان يوم عطلتي. مشيتُ والسمّاعات في أذني. صاحبتُ الموسيقى. رأيْتُ المرضى الكبار في العمر يمشون مصطحبين أعمدة المصل في الأروقة. بعضهم ضحك لي، وبعضهم أومأ، والبعض الأخير أكمل طريقه ولم يُعِرني أي انتباه. لاحظتُ في نزهاتي هذه، كم تختلف المستشفيات من مكان لآخر. بين برّادات الجثث وغرف المرضى فرق كبير. هناك نخسر الأمل، وهنا نربّيه. قد تكون هذه الملاحظة بديهيّة، لكنّي انتبهتُ لها عندها فقط. وأنا أخلع السماعات من أذني، تذكّرتُ المرأة الحامل التي ضغطت على معصمي وهي تلد قبل أن يأخذوها. نزلتُ إلى الطوارئ وسألتُ عنها، وعن تطوّرات ولادتها.

سلكتُ الطريق إلى غرفة الأطفال للمرّة الأولى. في الغرفة، علا بكاء الأطفال. تقدّمت مني طبيبة زميلة وسألتني عما أفعله هنا. قلُت لها إنّي أودّ النظر إلى طفل إمرأة الطوارئ الحامل والاطمئنان إلى صحته.

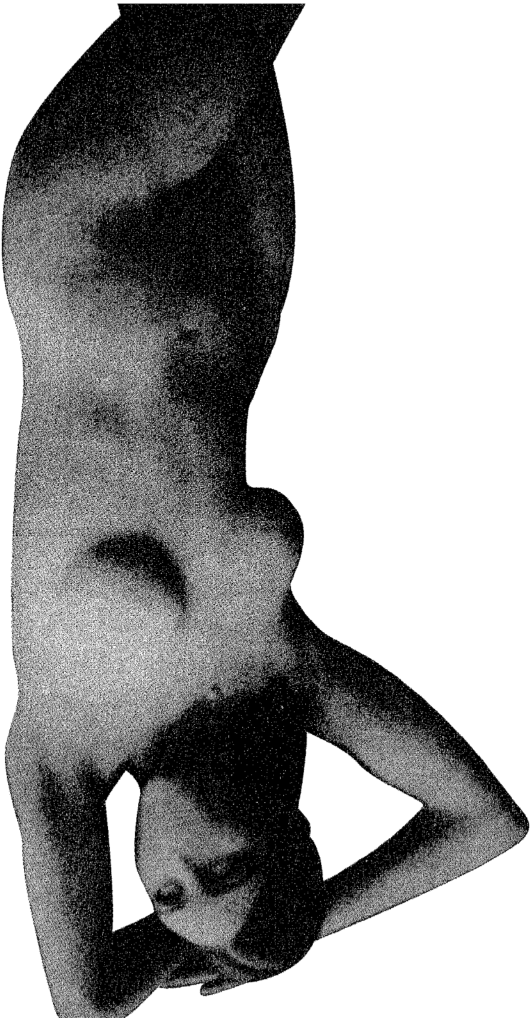

أخرجَتني إلى الخارج، ومن وراء الحاجز الزجاجي، أشارت إلى الولد وأخذت تشرح لي أنه على ما يرام، وأنهم سيأخذونه إلى أمّه بعد قليل لترضعه. طلبْتُ منها أن أرافقها لأني أودّ أن أطمئن على صحة الأم.

نظرت إليّ غير فاهمة، لكنها لم تسألني، وانتظرتُ أنا في الرواق على كرسيّ قريب.

اللحظة الفارقة

هل فعلًا، لم تُحكَ قصتنا من قبل يا سناء؟ هل هي حكاية حبّ استثنائية أم عادية؟ هل تكون قصّتنا شبيهة بقصص آخرين مع فروق بسيطة؟ أيكونون انتهوا إلى نهايات مماثلة، أم هزمونا؟ فكّرتُ في كل ذلك وأنا أعيد كتابة كتاباتي، ووصلتُ لقرار بأن لا أرسلها. الرسائل التي بدأت مخاطبةً لك، انتهت إلى يوميات مخربشَة، ثم مرتبة ومصفوفة على الكمبيوتر. كان قصدي من وراء تدويناتي هذه أن أفهم: ما هي تلك اللحظة التي تغيّر بعدها كل شيء بيننا؟

وفهمت.

لم يكن هناك لحظة فارقة على الإطلاق.

كنا دائمًا هكذا، نفتقد التواصل السليم. أنا كنتُ مرتاحًا في العلاقة. مرتاح لأني لا أشرح، ولأننا لا نستفيض. كنتُ أقنع نفسي أنّ العلاقة هذه علاقة ناضجة، لكنّي كنتُ على خطأ. متى عرفتُ ذلك؟ عندما رأيتُ المرأة تحمل طفلها في غرفتها بالمستشفى. متى

عرفتُ ذلك؟ عندما دخل زوجها الشاب الغرفة فجأة وصارا يبكيان، وعندما أخذ يعتذر منها، وهي تقول له أن لا يعتذر، وعندما حمل طفله، وعندما. .

عرفتُ أني كنتُ أبحث في المكان الخاطئ، وأني أنا الملام في فشل علاقتنا. أنا الذي كنت أتذرّع بذرائع واهية وأهرب منك عندما تقتربين مني. وأنا الذي كنت عندما أراك متعبَة أو حزينة أسألك ما بك فتنفين أنّ بكِ شيئًا، فلا أعود أسأل.

حتى عندما نمت معك للمرّة الأخيرة، كان ينقصنا شيء. لم أسألك سؤالًا واحدًا ونحن نمارس الحبّ. لم أتوقّف مرّة وأتأكد منكِ قبل أن أباشر بخطوة أخرى. كنت تستقبلينني كلّ الوقت من دون أن تقولي شيئًا. كانت فرصتي الأخيرة وأضعتُها.

كنتُ دائمًا هكذا ولم أنتبه. . حتى اليوم.

وددتُ أن أتّصل بك. أتيتُ برقمك من صديقة بعد إلحاح، ثمّ تراجعتُ عن الاتصال وأنا أطلب الرقم الأخير. لا أريد أن أؤذيك أكثر. لقد واصلتِ حياتك، وعليّ أن أفعل المثل، ولو كان مقدّرًا لنا أن نلتقي ذات يوم، وهذا قد يحصل، سأحرص أن أعتذر منك من دون أن أشرح الكثير.

أعتقد أنك ستفهمين، وستفهمين أني فهمت، ولعلّك أيضًا، ستبتسمين.

من يدري؟

هل أميت الجثة؟

في غمرة الأحداث، نسيتُ وعدي السابق لنفسي. بعد أسبوع من أحداث غرفة الطوارئ، سيذكّرني حذائي الغبي به. سأقوم لأنتعله، كما أفعل صبيحة كل يوم، فأفاجأ بثقب في نعله. كيف لم أنتبه إلى نشوء هذا الثقب في النعل رغم أني أنتعل الحذاء تقريبًا كل يوم؟ وكيف ينشأ ثقب في نعل حذاء في ليلة واحدة؟

سأرمي الحذاء، وانتعل آخر بالكاد استخدمته، وأخرج إلى شارع الحمراء الرئيسي عازمًا على شراء حذاء جديد. لا تعرفين يا سناء! قد يكون هذه المرة أقل غباءً من شقيقه! سأمشي على رصيف الشارع بعكس اتجاه السير. وأجد الحياة عادت لطبيعتها، ويكون بعض الباعة قد بدأوا بإزالة آثار الرصاص عن محلاتهم، وبتغيير الواجهات الزجاجية المحطّمة. سأقف للحظات أمام رسم الغرافيتي ثم أتابع طريقي. سيكون الشارع مزدحمًا كما قبل، وعمال النظافة يعملون بشكل عادي. سأتوقف لأشتري جريدة من كيوسك، لأتابع ما فاتني، ثم أقطع تقاطع «فيرومودا – جاكجونز»، وهناك أقف ناظرًا في محتويات الواجهة الزجاجية لمحل بيع الأحذية. سأنتقي حذاءً بنظري ثمّ أدخل.

منتظرًا العامل ليأتيني بحذاء من قياس قدمي، سيدخل الشاب الرسّام نفسه الذي رأيته تلك الليلة، سليمًا غير مصاب، وهو يتحدث على الهاتف مع صديق له، أو ربّما حبيب. هذا ما سأفهمه من منحى

حديثه الهاتفي وطريقة كلامه (سمعتُه يقول «بيبي» ويذكر اسم رجل). لن يراني في البدء، لأنه سيكون منهمكًا بتفحّص الأحذية وهو يتحدث على الهاتف. ثمّ سينهي اتصاله، ويضع هاتفه في الجراب الذي يحمله، وينتقي حذاءً معروضًا، يتفقد قياسه، ثم يتجه ناحيتي.

سينظر أحدنا إلى الآخر للحظة، ثمّ سيتوقّف، ويجلس على المقعد المواجه مرتبكًا.

يأتي البائع عندها بقياسي، ويسأل الشاب إن كان محتاجًا للمساعدة فيطلب بارتباكه المستمرّ قياسه من الحذاء الذي يحمله.

بعد أن يقفل البائع عائدًا إلى الداخل، سأنظر إلى الشاب من جديد وأبتسم وأسأله:

– إنت منيح؟

– . . أنا منيح.

وهو يومئ لي بالإيجاب، سأتذكّر رقم الهاتف الذي ملأتُ به هوامش يوميّاتي. سأتذكّر الأرقام بالتتابع، رقمًا رقمًا. وأنا أمشي بحذائي الجديد عائدًا إلى شقّتي، سأصل إلى قناعة بأن هذا اللقاء ليس وليد صدفة. هذا اللقاء يريني طريقًا جديدة. ربما عليَّ أن أتّصل بالرقم حالما أصل الشقّة. ربما عليَّ أن أميت جثّة المسلّح، كي أتابع حياتي. ربّما عليَّ أن أدفن الموت الذي شهدتُه، ربّما عليَّ أن أساهم بجعل القصة، التي كنتُ جزءًا منها، تقترب قدر الإمكان من الكمال.

ربّما.

شكر

شكر أساسي لكلّ من ساعد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ليخرج العمل بهذه الصورة.

شكرًا لمحمّد ربيع أوّل من قرأ الرواية، ولزينة حلبي التي اقترحت بعض التعديلات ولتشجيعها، ولسناء خوري الداعمة دومًا، ولليلى أرمن التي استُخدِمَت بعض تغريداتها على «تويتر» كتفاصيل أساسيّة في الفصل الأخير من هذه الرواية.

شكر واجب لمحمّد جابر، وفادي عادلة، وبرّاق ريما الكتّاب البصريين لهذه الرواية، ولجنى طرابلسي التي لولا متابعتها الفنيّة الحثيثة لما كان العمل ليخرج بهذه الصورة، وللصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق) المانح لهذا المشروع.

شكر أخير لقرّاء لا أعرفهم على مواقع «فايسبوك» و«تويتر» و«تامبلر» و«ووردبرس» و«غودريدز»، لطالما شجّعوني على المواصلة.

للتواصل مع الكاتب

هلال شومان

hilalchouman@gmail.com

للتواصل مع الرسّامين

فادي عادلة

fadiadleh@gmail.com

fadiadleh.deviantart.com

برّاق ريما

barrackrima@hotmail.com

barrackrimaa.blogspot.com

جنى طرابلسي

janatraboulsi@yahoo.fr

ayloul.blogspot.com

محمد جابر

gaber@gaberism.net

www.gaberism.net

جورج عزمي

georgeazmy@gmail.com

www.dripbook.com/georgeazmy

أيّار ٢٠٠٨. بيروت غارقة في اشتباكات مسلّحة. أمير صغير يرسم على جدران بيروت. كاتب يبحث عن قصّة. امرأة حامل تحلّ شبكات التسلية. مسلّح يخرج من ماضي الحرب الكبرى إلى حاضر الحروب الصغيرة. طبيب يصاحب جثث المستشفى، ويكتب لحبيبته. حاملين قصصهم الخاصّة، يقترب هؤلاء بعضهم من بعض. يتلاصقون. يتنافرون. وتحت وطأة الإيقاع الجديد للمدينة، يُدفعون للحافّة، ويعلقون في الليمبو.

هلال شومان

من مواليد بيروت ١٩٨٢. متخصّص في هندسة الاتّصالات. إلى جانب عمله في التسويق والإعلام الرقمي، ينشر مقالاتٍ ونصوصاً غير دوريّة في جريدة «السفير» وصحف لبنانيّة وعربيّة أخرى. يقيم حاليًّا في دبي.

له روايتان: «نابوليتانا» (٢٠١٠) عن دار الآداب اللبنانيّة ومحترف «كيف تكتب رواية»، و«ما رواه النوم» (٢٠٠٨).

Bibliotheca Alexandrina
1194967

ISBN 978-9953582467
9 789953 582467

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس

AFAC آفاق